مكتبة ٢٠٠٠ الأسرة
مهرجان القراءة للجميع
2000 عشر سنوات

الروائع

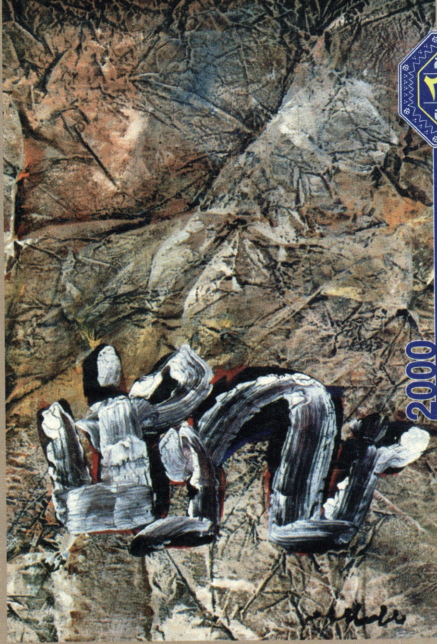

الديوان في الأدب والنقد

عباس محمود العقاد ◆ إبراهيم عبد القادر المازني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

٢٠٠ قرش

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

لتحميل المزيد من الكتب تفضلوا

بزيارة موقعنا

www.books4arab.me

إهـــــــداء ٢٠٠٩

المرحوم / فهيم حافظ الدناصورى

جمهورية مصر العربية

الديوان
فى الأدب والنقد

الديوان فى النقد والأدب

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: تكوين خطى

التقنية: اكريلك وخامات أخرى على ورق

المقاس :٤٢×٩٤,٥ سم

حامد عبدالله (١٩١٧- ١٩٨٥)

فنان متميز، شق طريقه بأسلوبه الخاص معتمداً على موهبته. اتبع الأسلوب التأثيرى، ثم اتجه إلى الفن الفطرى. هاجر إلى أوروبا منذ وقت مبكر؛ وهناك اتجه إلى تشكيلات حروف الكتابة العربيةلينسج منها لوحات ذات خصوصية وتميز، فاهتم بتحقيق التعبير التشكيلى من وحى مضمون الكلمة المكتوبة رسماً، وعبر عن محتواها. أقام الفنان أول معارضه عام١٩٤٠. وافتتح معهداً خاصاً لتدريس الرسم عام١٩٤٢. وكان من تلاميذه الفنانات تحية حليم وإنجى أفلاطون وصفية حلمى حسين. وقد أقام معرضاً شاملاً لأعماله عام١٩٥٦. وهاجر بعدها إلى أوروبا. عاد إلى القاهرة عام١٩٨٣ ليقدم نماذج من إنتاجه خلال نصف قرن.

محمود الهندى

الدّيــــوان
فى الأدب والنقد

عباس محمود العقاد
إبراهيم عبد القادر المازنى
تقديم: د. ماهر شفيق فريد

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الروائع)

الدّيــوان
فى الأدب والنقد
عباس محمود العقاد
إبراهيم عبد القادر المازنى
تقديم: د. ماهر شفيق فريد

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

تصدير

حين تقدم مكتبة الأسرة فى إطار مهرجان القراءة للجميع النص الكامل لكتاب «الديوان فى الأدب والنقد» لمؤلفيه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى فإنها تضع تحت أنظار قراء اليوم - وكثير منهم من الشباب الذى لم يعاصر العقاد ولا المازنى - وثيقة من أهم وثائق النقد العربى الحديث ، ومعلما من معالم التطور الأدبى فى مصر .

كان المؤلفان ينتويان أن يصدرا الكتاب فى عشرة أجزاء ، بيد أنه لم يظهر منه سوى جزءين طبع أولهما فى يناير وثانيهما فى فبراير سنة ١٩٢١ وأعيد طبعهما بعد شهرين وأصدرت دار الشعب طبعة ثالثة منه لا تحمل تاريخاً . ويذكر الدكتور عبد العزيز الدسوقى فى كتابه «تطور النقد العربى الحديث فى مصر» أنه «على الرغم من أن هذا الكتاب قد طبع طبعا رديئا على ورق أصفر تقتحمه العين ، والجزء الأول يبلغ من الصفحات ٦٢ صفحة ولا يزيد الثانى على هذا الحجم إلا قليلا . فإن هذين الجزءين الصغيرين أحدثا من الدوى فى الربع الأول من القرن العشرين ما لم يحدثه كتاب أدبى آخر باستثناء كتاب أدبى آخر جاء بعدهما .. هو الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين» .

كان الدوى راجعا إلى جمع الكتاب بين النظر والتطبيق ، وطرحه مفهوما جديدا للشعر يغاير ما كان سائدا ، ونقده أعلام العصر – شوقى وعبد الرحمن شكرى شعرا ، والرافعى والمنفلوطى نثرا – نقدا أوفى على الغاية فى شدته وقسوته . منطلق الكاتبين «إنسانى مصرى عربى : إنسانى لأنه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة، ولأنه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الإنسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لأن لغته العربية » . وهدف الكتاب «إقامة» حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما » .

وتحقيقا لهذا الهدف صب العقاد نفسه سوط عذاب على شوقى والرافعى ، بينما وّجه المازنى سهام نقده إلى المنفلوطى وشكرى . ورغم انفراد كل من المؤلفين بشخصية فكرية مستقلة ، ومنهج تعبيرى متميز ، لن يصعب على القارئ أن يرى أنهما يلتقيان فى الكثير ، مع زيادة هنا أو نقص هناك ، وأنهما ارتويا من نفس الينابيع الفكرية والأدبية ، وتلاقت آراؤهما فى كبريات المسائل ، ومن ثم خرج الكتاب عملا متسقا، يكمل فيه كلٌ من الكاتبين صاحبه .

ولا مراء فى أن القسم الذى اختص به العقاد شوقيا هو المسئول الأول عن هذا الدوى الذى أحدثه الكتاب . فقد خرج العقاد عن الاجماع إذ انعقد الرأى – أو كاد – على أن شوقى هو أعظم شعراء العربية فى

عصره ، وأنه مجدد ديباجة الشعر العربى منذ المتنبى . فجاء العقاد ليقول أن شعره شعر الصنعة لا شعر الطبع ، تغيب عنه الشخصية الإنسانية المتميزة ، ولا تكاد تجد فيه أثرا للشعور الصادق والفطرة الحية ، وإنما هو زخرف ونسج على منوال الأقدمين . لم يُلق العقاد القول على عواهنه ، ولم يرسله إرسالا ، وإنما قدم تحليلا دقيقا - وإن لم يخل من تحامل وشطط لعدد من قصائد شوقى مثل النشيد القومى الذى نظمه (وقد فضل عليه العقاد نشيد شاعر شاب - وقتها - هو عبد الرحمن صدقى) ورثائه لمحمد فريد (حيث قارنه العقاد بالمعرى) ورثائه لعثمان غالب (وقد حاكاه العقاد محاكاة ساخرة منظومة) وقصيدته فى استقبال أعضاء الوفد المصرى ، ورثائه لمصطفى كامل (وقد أعاد العقاد ترتيب أبياته ليدلل على افتقارها إلى الوحدة العضوية) ورثائه للأميرة فاطمة بنت إسماعيل . وكان نقد العقاد لشوقى فى هذا كله أشبه بما يسميه ت. س. إليوت «نقد الورشة» : النقد الذى يمارسه مزاول لصنعة الشعر ، خبير بمضايقه ، وليس مجرد مُنّظر تعوزه المعرفة الحميمة بفن القريض . على أن هذا النقد التطبيقى كانت ترفده ثقافة عريضة ، واستيعاب للرومانسية الإنجليزية والمثالية الألمانية والنقاد العرب الكلاسيين كالحاتمى والجرجانى (سبق الحاتمى فى «زهر الآداب» إلى تقرير مبدأ الوحدة العضوية فى القصيد) . ومما ضاعف من قوة الأثر الذى أحدثه هجوم العقاد على شوقى حدة لفظه ، ولدده فى الخصومة ، وجمعه بين المنطق الصارم وبلاغة القلم ، واستراتيجياته الجدلية ، وتلك النبرة الحارة التى تسرى فى تضاعيف نثره فتحيله - فى بعض اللحظات - إلى ما يشبه الشواظ الحارق الذى يحرق ويدمر .

لم يكن العقاد أول من هاجم شوقى ، فقد سبقه إلى ذلك محمد المويلحى الذى نقد ديوان شوقى الصادر فى ١٨٩٧ . ولم يكن «الديوان» هو أول عمل للعقاد يفصح عن رأيه فى أمير الشعراء ، ففى كتابه الباكر «خلاصة اليومية» إرهاص بماسيلى . لكن فصول العقاد هنا كانت تمثل نقلة نوعية فى نقد عصره وذلك بجمعها بين النقد التطبيقى الدقيق والمنطق النظرى المحدد . فمن خلال فحصه لصنعة شوقى الشعرية - معجم ألفاظه ، وصوره ، وترتيب أفكاره ، وتناصه مع السابقين ينتهى العقاد إلى أن شعره يعانى من عيوب أربعة هي: التفكك، والإحالة، والتقليد، والولوع بالأعراض دون الجوهر. ويضرب العقاد أمثلة لكل عيب من هذه العيوب ، مرسيا إذ يفعل ذلك عددا من الأصول النقدية بالغة الأهمية .

أول هذه الأصول إيمان العقاد بأن الشعر ليس صنعة ولا لهوا ولا زخرف ، وإنما هو لباب اللباب ، وأداة معرفية لمعرفة الذات والآخرين والكون . فالشاعر المطبوع هو الذى يجمع بين عمق الفكر ورهافة الوجدان وخصب الخيال والتمكن من اللغة . إنه الذى «يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر و . . لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها . . يقولون إن أذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا إن فطرة الشاعر ينبغى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الإحساس المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا» .

وثاني هذه الأصول هو مفهوم الوحدة العضوية ، أو على حد تعبير العقاد : «إن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة» . بهذا قوض العقاد النظرة التقليدية إلى «بيت القصيد» أو البيت الذى يكون أمير شعر الشاعر ، فإنما قيمة البيت فى موقعه من كلٍ أكبر ، من معمار القصيدة الكليّ ، وإلا جاء نتوءا ونشازا يلفت النظر إلى ذاته ، وينسى أنه جزء من كل ، يقوم بقيامه ويسقط بسقوطه .

وثالث هذه الأصول أن هدف الشعر هو الوصول إلى الحقيقة الجوهرية وعدم الوقوف عند الظاهر. ويعبر العقاد عن ذلك تعبيرا رائعا غدا من القطع الخالدة locus classicus فى النقد العربى . وقد كنت أتمنى لو أوردت كلامه هنا كاملا ، على طوله ، لأن كل كلمة فيه تضيف شيئا ، ولا تقبل الاجتزاء ، ولكنى مراعاة لقيود الحيز ـ أكتفى بإيراد مطلع القطعة التى سيلتقى بها القارئ بعد قليل . يقول العقاد مخاطبا شوقى .

«اعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن

يقول لك عن الشئ ماذا يشبه وإنما مزيته أن يقول ما هو ويكشف لك عن لبـابه وصلة الحيـاة به . وليس هم الناس من القصـيد أن يتـسابقـوا في أشواط البصر والسمع وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . وإذا كان وكذلك من التشبيه أن تذكر شيئـا أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خـمسة أشياء حمراء بدل شئ واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع في وجـدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك»

وصف الدكتور محمد مندور – وكانت بينه وبين العقاد خلافات كثيرة في الرأى – هذا الجزء من كلام العقـاد وما يليه بأنه «كلام رائع يدل على فهم صحيح لحـقيقة الشعر كـما يفهمه الغربيـون» (مندور ، النقد والنقاد المعـاصرون) وأثنى على هذه «الـفقـرات القوية المركـزة» وإن أردف ذلك ببعض تسـاؤلات عما يقصـده العقاد بلبـاب الأشياء (والحق أنها مـعضلة فلسفـية أعقـد من ذنب الضب) ورأى في كلامه جـمعا بين عـدة مذاهب شعرية غربية متصارعة. ولا ريب في أن الذى يقوله العقاد هنا (وإن كان مألوفا لقارئ كانط وهيجل وشلنج وشلجل وكولردج) كان ثورة فكرية في مطالع القـرن العشـرين ، ونقلة نوعـية خطت بالنقـد الأدبى في مصـر خطوات .

ومما ضاعف من أثر نقد العقاد هنا تلك اللهجة الحادة التى اصطنعها ، وسخـريته الهاجيـة التى تكاد تشفى على السبـاب : «تلك الخرق المنتنة»

(يعنى بعض الصحف الأسبوعية) « الحشرات الآدمية» «عاهاتهم ومقاذرهم» «أوباشها» «نفاية المجتمع وشذاذه» . وتبلغ هذه الحدة أقصاها حين يخاطب العقاد الرافعى فيقول .

«إيه يا خفافيش الأدب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة، لا هوادة بعد اليوم . السنوط فى اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم فإنكم بهذه المساوئ تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لهما حسناتكم إن كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة» .

إن العقاد هنا - مع التسليم بتحامله وخروجه عن الموضوعية - ينضم إلى صفوف الهجائين الكبار :جوفنال ، وفولتير ، وبوب ، وسويفت ، وهاوسمان ممن كانوا لا يترددون فى استخدام كل حيلة بلاغية أو أداة تعبيرية فى نقض حجة الخصم ، بل نسفه هو ذاته نسفا . ولم يكن العقاد بدعا فى ذلك : فالرافعى فى كتابه «على السفود» ورمزى مفتاح فى «رسائل النقد» - وكلاهما هجوم ضبار على العقاد - قد عمدا إلى مثل ذلك ، أو أكثر .

والواقع أن فهم القارئ لموقف العقاد من شوقى لا يمكن أن يكتمل دون الرجوع إلى وثيقتين أخريين : رسالة العقاد المسماة «رواية قمبيز فى الميزان» حيث يتناول مسرحية شوقى من ثلاث زوايا: حسن النظم والصياغة ؛ تمحيص حوادث التاريخ : ابتكار الخيال فيما قصر فيه

المؤرخون ، فيأخذ عليه – مستخدما مقاييس النقاد العرب القدامى والبلاغيين التقليديين – تغييره صور الأسماء التاريخية ، ومخالفاته النحو والصرف ، وسرقاته الشعرية ، وافتقاره إلى الصحة التاريخية ، وتملقه الشعب وذوى النفوذ .

وهناك ذلك الفصل الذى عقده العقاد لشوقى فى كتابه «شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى» ، وفيه مقارنة رائعة بين أبيات لشوقى وأبيات لابن الرومى فى وصف الربيع ، تكشف عن قصور الشاعر الحديث بالمقارنة بسلفه العظيم . يورد العقاد قصيدة شوقى التى مطلعها .

آذار أقبل قم بنا يـــا صاح   حىِّ الربيع حديقة الأرواح

ليقارنها ببيتين من ابن الرومى فى إحدى ربيعياته . يقول العقاد (ومرة أخرى أكتفى آسفا بمطلع كلامه ، وكنت أود لو أوردته كاملا ، فهو كلٌ تتضافر أجزاؤه على طرح الفكرة وتجسيمها ، وهو من أروع نماذج النقد التطبيقى التى لا تقل عما كان يبدعه إليوت ورتشاردز فى العشرينيات ، ثم أصحاب مدرسة النقد الأنجلو – أمريكى الجديد – ليفيز وإمبسون وبروكس ووارن وبلاكمر وتيت ورانسوم فى عقود تالية) :

«خذ ذلك الربيع الحى من بيتين اثنين ليس فيهما رنين ولا عذوبة مصطنعة ، ولكنك حين تقرأهما ـ تحس أن قائلهما قد شعر بالربيع «الحيوى» فى أعماقه ولم يفته شئ مما يبثه فى عالم الحياة كله ، ولم يكن

الربيع عنده ولا عند من يلاحظون هذه الملاحـظة مروحة ولا سـجادة ولا قيلولة ولا مجلس شراب ، ولكنه كان ثورة نامية فى الشعور وثروة زاخرة فى عالم النبات والأحيـاء بأوسع معانى الحياة ، وهذان البيتان هما قوله فى إحدى ربيعياته :

تجد الوحوش بـه كفايتها	والطير فيه عتيدة الطعـم
فظباؤه تضحـى بمنتطح	وحمامه يضحى بمختـصم

فلم تبق فى الدنيا حـياة لم يشاركهـا ربيعها قائل هذين الـبيتين بلا حاجـة إلى الزخرف ولا إلى التكلف ، ولم يتـصور قائل هذين البـيتين ربيعه الجـميل راحة جسدية ولا مـتعة حسيـة ولا وشيا ولا زينة ، ولكنه تصوره ذخيرة «حيـوية» نامية ومرحا متفجـرا من الأعماق يضيق به نطاق كل حياة ، فـإذا هى تختصم فى لعب وفى قوة ، وإذا هـى تعاف الراحة فتبذل بعض ما عندها من النـشاط الغالب فى النطاح والخصام . ولو رأى الشوقيون ألف ربيع فـوق هذه الأرض وتحت هذه السماء لما خطر لهم قط أن النطاح أو الخصام معنى من المعانى الربيعية التى يستوحيها الشعراء من موسم الحياة . . » .

أما المازنى – وكان اهتمامه بالقص النثرى أكبر من اهتمام العقاد – فـقد اتخـذ من إحـدى قصـص المنفلوطى – قصـة «اليـتيم» من كتـاب «العبـرات» – نموذجا لأدب الضـعف والخور والتـهافت ، وجنـوحا إلى

الحلاوة والنعـومة والأنوثة ، وأخـذ على المنفلوطى إسرافـه فى استـخدام المفعول المطلق (عدّله فى هذه القصة أكـثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ، على طريقة الدكتور محمد عبـد المطلب فى عصرنا !) وكثرة نعوته وأحواله . وكانت نغمة المازنى فى هذا كله أمـيل إلى الفكاهة ، وأقل جدا عابسا من نغمة العقاد .

لكن المازنى حين يتحدث عن شكرى - زميله بـل أستاذه فى مدرسة الديوان - يجاوز كل الحدود اللائقـة فى التعبير ، فـيسمى شكرى «صنم الألاعيب» ويصفه بعبارات من قبـيل : «طوفان من الأوحال النفسية» «هذا المنكود» «المرزوء فى عقله» . ويسجل انشغاله بالخوف من الجنون ، وتردد لفظ «الجنون» ومـا جرى مجـراه فى شعـره ونثره ، وجنوح تفكـيره إلى الاجرام والانتحار ، مـوحيا إلى القارئ أنه إزاء حالة مرضية أو شـخصية سيكوباتية. وقد كـان لهذا النقد الجارح أثر كبير فى اعـتزال شكرى الحياة الأدبية ، وامتلاء نفسه بالمرارة والألم ، إلى أن رحل عن عالمنا فى ديسمبر ١٩٥٨ مشلولا وحيدا معزولا لا يكاد يذكره أحد ، بينما طبق ذكر زميليه الآفـاق ، وإن قُيض له ، بعـد رحيله ، مـن الدارسين والأدباء من نوهوا بفضله ، ورفعوا ذكره .

ويقتضينا الإنصاف أن نضيف أن العـقاد والمازنى ندما فيما بعد على ما فرط منهما من قسـوة بالغة فى حق شوقى وشكرى ، فكتب العقاد فى مجلة «الهلال» (أكتوبر ١٩٥٧) عن «شاعـرية شوقى فى الميزان» حيث أقر

له بالنبوغ في الصنعة والتمكن من الأداء . بينما كتب المازني في جريدة السياسة (٥ ابريل ١٩٣٠) مقالة عن «التجديد في الأدب المصري» قال فيها : «من اللؤم الذي أتجافى بنفسي عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدي وسدد خطاي ، ودلني على المحجة الواضحة ، وأنني لولا عونه المستمر لكان الأرجح أن أظل أتخبط أعواما أخرى ، ولكان من المحتمل جدا أن أضل طريق الهدى » . وأردف هذه المقالة بمقالة أخرى في عدد ١٢ ابريل ١٩٣٠ من الجريدة نفسها أكد فيها موهبة شكري وسبقه إلى التجديد (انظر مندور ، النقد والنقاد المعاصرون) .

ماذا يبقى من شوقي وشكري والرافعي والمنفلوطي بعد هذه الضربات الموجعة التي كالها لهم شابان طموحان ، بعيدا مطارح الآمال ، وافرا الحظ من النبوغ والذكاء والحساسية ، غزيرا العلم ، أخذا نفسيهما منذ البداية بالجد الصارم والمشقة ؟ أما شوقي فقد عاش ، وسيظل يعيش ، لأنه عبقرية شعرية لامراء فيها (انظر إلى لهجة الاحترام ، بل التوقير ، التي مازال ثروت أباظة وفاروق شوشة وآخرون يتحدثون بها عن شاعر العزيز!) .

وأما شكري فقد عاشت منه بضع قصائد - أبرزها قصيدة «المجهول» العظيمة - وكتاب «الاعترافات» وبعض مقالات نقدية . وأما الرافعي فقد انضم إلى صفوف الموتى المبجلين في مقابر الأدب ، وإن خف إلى بحثه من مرقده - بين الحين والحين - نقاد كبار كالدكتور عبد القادر القط .

وأما المنفلوطى فقد مات موتا طبيعيا بالسكتة الذوقية (ربما كانت روايات محمد عبد الحليم عبد الله هى آخر ارتعاشة لذبالته المرتجفة فى مهب الريح) إذ تغير العصر ، وتبدلت الحساسية ، وظهر - منذ منتصف الأربعينيات - كتاب من طراز إدوار الخراط ويوسف الشارونى وبدر الديب وعباس أحمد ومنير رمزى ، عرفوا الرمزية والتعبيرية والسريالية وما جرى مجراها .ثم جاء مدّ الواقعية الطامى على أيدى حقى ونجيب محفوظ وعادل كامل والسحار والبدوى وأضرابهم فأجهز على نظرات المنفلوطى وعبراته ، وكشف عن تهافتها العاطفى وسذاجتها الفكرية وأسلوبها الإنشائى .

وتظل كلمات العقاد والمازنى - فى غمرة هذا كله - حية ناضرة بعد ثمانين عاما أو نحوها ، لأنها كانت فى عصرها إرهاصا بتغير فى الذائقة الأدبية ، بل فى مفهومنا للشعر والقص ذاته . لم يكن العقاد والمازنى مجرد ناقدين وإنما كانا مبدعين بحقهما الخاص: الأول هو صاحب رواية «سارة» الفريدة ، وحفنة من القصائد العظيمة «نفثة» (ظمآن ظمآن . . .) «إيه يا دهر» «يوم الظنون» «القمة الباردة» «الكروان» ، والدراسة العظيمة لابن الرومى (فى حديث لإدوار الخراط بمجلة «المصور» ٣٠/٦/ ٢٠٠٠ بمناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب (بالمشاركة) لهذا العام ، يقول: «العقاد فشل فى الرواية وقدم شعرا متوسطا لأنه ليس مفكرا حقيقيا ، وكان يردد نظريات النقاد الانجليز المعروفين على أيامه ،

وهو ناقد سيئ ومفكر ضعيف ؟ وهذا كله هراء من جانب عميد الحداثيين أهون ، في ميزان النقد الصحيح والقسطاس المستقيم ، من أن يستحق حتى عناء الرد عليه) . وأما المازني فصاحب رواية «إبراهيم الكاتب» "عظيمة (يفيها الخراط حقها من التقدير في كتابه «الحساسية الجديدة» ، دار الآداب ، بيروت ١٩٩٣) وعدد من القصائد والأقاصيص والفصول لا تقل عن ذلك جدارة بالذكر .

بين يديك - أيها القارئ - كتاب لا يخلو من تطرف وإجحاف وتحامل ، ولكنه لا يخلو أيضا من نظرات صادقة ، وملاحظات نقدية رهيفة ، وبصيرة سبقت عصرها . كان العقاد والمازني رجلين فيهما مافي سائر الرجال من قوة وضعف ، وحيدة وهوى ، وصواب وخطأ ، ولكنهما كانا - وتلك شفاعتهما بإزاء أي عيوب - عقلين عظيمين جمعا بين أنضج ثمار الفكر الغربي والتراث العربي ، والتقت فيهما - إذا استعرنا تعبير إليوت - جدائل الموروث والموهبة الفردية ، أو التقت - بتعبير ماثيو أرنولد - قوى اللحظة التاريخية والرجل . أما اللحظة فيعبر عنها المازني حيث يقول ، وكأنه أحد أبناء العصر الفيكتوري - تنسون أو كارلايل أو أرنولد أو هاردي - ممن خبروا عذاب الصراع بين العلم والدين ، وآلام الانتقال من مجتمع الزراعة إلى مجتمع الصناعة ، وتغير الأخلاقيات القديمة ، وتصدع القيم التقليدية ، واختلاف أنماط الفكر والشعور والعيش بين الريف والحضر :

« إنا نعيش فى عصر تفكير عميق ، وعهد قلق عظيم واضطراب كبير، وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيقات ؛ عصر تحتصر فيه العقول ويستنفد فى حيرته مجهود القلوب . وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية ، وصارت حياتنا محيطا زاخر العباب يضطرب بنا متنه فى عشى ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ إلى المعرفة والحنين إلى النور » .

وأما الرجل - ويمثله هنا العقاد والمازنى وشكرى - فيعبر عنه العقاد حين يقول فى مقدمته للجزء الأول من ديوان المازنى الصادر فى ١٩١٣ :

«نحن اليوم غيرنا من عشرين سنة . لقد تبوأ منابر الأدب فتية لا عهد لهم بالجيل الماضى . نقلتهم التربية والمطالعة أجيالا بعد جيلهم فهم يشعرون شعور الشرقى ويتمثلون العالم كما يتمثله الغربى . وهذا مزاج أول ما ظهر من ثمراته أن نزعت الأقلام إلى الاستقلال ، ورفع غشاوة الرياء والتحرر من القيود الصناعية . هذا من جهة الأغراض والأنساق . وأما من جهة الروح والهوى فلا يعسر على الندس [الفطن] البصير أن يلمح مسحة القطوب للحياة فى أسرة الشاعر العصرى الحديث ، ويتفرس هذا القطوب حتى فى الابتسامة المستكرهة التى تتردد أحيانا بين شفتيه» .

هذه كلمات مضيئة تستحق أن تقارن بالثورة التى أحدثها فى الشعر الإنجليزى، فى ذلك الزمن ذاته ، باوند وإليوت ، فلا يخرج العقاد والمازنى من المقارنة خاسرين .

ماهر شفيق فريد

المهندسين ، يوليو ٢٠٠٠

مقدمة

بسم الله نبتدئ (وبعد) فإن كان للسكوت عن الخوض في أحاديث الأدب داع فقد زال ذلك الداعي اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة في أصوله وفنونه ، أخصها الأمل في تقدمه ، لالتفات الأذهان إلى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس لاجتراء الأدعياء والفضوليين عليه ، وتسلل الأقلام المغموزة والمآرب المتهمة إلى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل وتوقي تلك العلل . وهو كتاب يتم في عشرة أجزاء[1] . موضوعه الأدب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب في بضع السنوات الأخيرة ورأوا بعض آثاره وتهيأت الأذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب في اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو أن نكون فيه موفقين إلى الافادة مسددين

(١) لم يظهر من الديوان في النقد والأدب إلا جزءان طبع أولهما في يناير وثانيهما في فبراير سنة ١٩٢١ وأعيد طبعهما بعد شهرين .

إلى الغاية . وأوجز ما نصف به عملنا – أن أفلحنا فيه – أنه أقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، وأقرب ما نميز به مذهبنا أنه مذهب انسانى مصرى عربى : انسانى لأنه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة ، ولأنه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لأن لغته العربية ، فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت فى لغة العرب منذ وجدت ، إذ لم يكن أدبنا الموروث فى أعم مظاهره إلا عربيا بحتا يدير بصره إلى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيدة أصناما عبدت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا أوجب وأيسر من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه فى جميع حالاته ، فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة ، ووقفنا الأجزاء الأولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للأدب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لاقدارها . فإن أصبنا الهدف والا فلا أسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بيانا .

الجـــزء الأول

شوقى فى الميزان (توطئة)

كنا نسمع الضجـة التى يقيمها شوقى حول اسـمه فى كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجـات فى البلد ، لا استضخاما لشهرته ولا لمنعة فى أدبه عن النقد ، فإن أدب شـوقى ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه فـى اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعفـفا عن شهرة يزحف إليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارهـا ودسائسها طى الضـريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين إذا أزدروا شيئا لسـبب يقنعهم لم يبالوا أن يطبق الملأ الأعلى والملأ الأسفل على تبـجيله والتنويه به فـلا يعنينا من شوقى وضجـته أن يكون لهما فى كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقـفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليـوم وغدا لولا أن الحرص المقيت أو الوجل على شـهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحـاسة الأخلاقية من كل إنسان وذهب به مذهبا تعافه النفس . فإن هذا الرجل يحـسب أن لا فرق بين الإعلان عن سلعة فى السوق والارتقـاء إلى أعلى مقـاوم السمعـة الأدبية والحيـاة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعـتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمـعة حق السمعة أن يشترى السنة السـفهاء ويكم أفواههم ، فإذا استطاع أن يقـحم اسمه على

الناس بالتهليل والتكبير والطبول والزمور فى مناسبة وغير مناسبة وبحق أو بغيرحق فقد تبوأ مقعد المجد وتسنم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ، وسحقا للمقدرة والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل والحياء ، فإن المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن فى الخزانة ، وهل للناس عقول ؟؟

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقى ممن لا يمدح الناس إلا مأجورا . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق المنتنة نعنى بها بعض الصحف الأسبوعية . وعرف من لم يعرف أنها ما خلقت إلا لثلب الأعراض والتسول بالمدح والذم وأن ليس للحشرات الآدمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء وذوى المآرب والحزازات . خبز مسموم تستمرئه تلك الجيف التى تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الأرض . فى بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جوعا أو تواروا عن العيون . هذه الصحف الأسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق أصحابها تكيل المدح جزافا لشوقى فى كل عدد من أعدادها ، وهى لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل الأسباب واقتسار الفرص . فإن ظهرت له قصيدة جديدة وإلا فالقصائد القديمة المنسية فى بطون الصحف ، وأن لم يكن شعر حديث ولا قديم فالكرم والأريحية والفضل واللوذعية ، وأن ضاقت أبواب الدعاء والاطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال عليه بالشتم ويعير

بالتقصير عن قدر شوقى والتخلف عن شأوه . وهكذا حتى برح الخفاء وانهتكت الدسيسة . والعجب أن يتكرر هذا يوما بعد يوم ويبقى فى غمار الناس من يحتاج إلى أن يفهم كيف يحتال شوقى وزمرته على شهرتهم ومن أى ريح نفخت هذه الطبول .

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ويعلمون أنها آفة وأى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقيمها وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، إلا شوقى . فإنه يعتدها آلة شرف وأحدوثة حسنة فهو يغمس نفسة فى تقريظها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى أن ينصب عجاجات من أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية فى مثل ثروته بصر به يمد يده بالسلام الخفى لأولئك الأوباش فى خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزى لها ويود أن تكتم عليه . ونقول فى مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية وشمم أفذاذ العبقرية . فأما أن تكرم البطالة كما تكرم جلائل الأعمال ، وأن يدعى الناس إلى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروءة وأن يتنادى إلى الاحتفاء بناهشى الأعراض كما يحتفى بمهذبى الارواح وهداة العقول ، وأن يؤيد نفاية المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور ، فتلك الهاوية التى لا يبدو قرارها . . . ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟ شعراؤها - الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال

الأسمى لا يرضون بما دون غاية الغايات مطمحا لاعجابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعد رفق السجانين بهم ضعفا، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما، واتساع المجتمع لهم رزءا . . . إلا أنه والله للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقى بجمهوره واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه أن يسخّر الصحف سرا لسوْقه إليه واختلاب حواسه واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده أجرة سوْقه واختلاسه. وأقسم لو فعلها رجل فى أوروبا لما قدر أن يمكث بعدها أسبوعا واحدا فى بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مغبتها أدبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشرليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شىء ولا يؤنف فيه من شىء ، ولا يصد المرء أن يخلع فيه عاريا إلا اتقاء طوارئ الجو وعوارض الحر والبرد . أما الحياء فلا ولا كرامة .

أن أمراً تبلغ به مسحنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى ممن يستنكف فى سبيل بغيته وأى باب لا يطرقه تقربا إلى طلبته . والحقيقة أن تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد به كل مورد وأذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم . نقول أن تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد فى مركز أمكنة من قضاء هذه اللبانة إذ كان

أشبـه بملحق أدبى فى بلاط أميـر مصر الـسابق وكانت وظيـفتـه وسيلة لارتبـاطه بأصحـاب المؤيد واللواء والظاهر وغيـرها من الصحف المتـصلة بالبلاط ، فكانت لا تبـخل عليه بالتـقريظ والتهليل وتتـحاشى أن توسع صفحاتها لنقده كما توسـعها لنقد غيره . وأنت إذا قلبت الصحف القديمة رأيت فيها مئات المقالات فى نقد الأدبـاء المشهورين كتابا كانوا أو شعراء ولا ترى اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حمـلاتها . واستثن مقالتين أو ثلاثا بدأ بها المويلحى نقده فى صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ، وهذا أدعى إلى الريبة ، وكـان فى أمكان شوقى وموظفين آخـرين بالبلاط هبـات محـبوسـة على أقـلام الكتاب والأدباء فكـان شوقى يوظف منهـا المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بـالأدب ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه فى الصحف ويلغطوا فى المجالس بتفضيله وتقديمه .

ولو شئنا لسـردنا أسماءهم واحدا واحـدا وأكثرهم أحيـاء يرزقون . أضف إلى هؤلاء من يمدحـونه لمشاركتـهم أياه فى العادات الخـصوصـية والمنادمات الليلية ، وهم غيـر قليل ، ومن اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والألقـاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشـعراء فـيقـول لك : أولهم محـمود سامى باشـا البارودى (لأنه باشـا عتـيق) وثانيهـم اسماعيل صـبرى باشا (لأنه أحـدث عهـدا بالباشـوية والوزارة) وثالثهم أحمد شوقى بك (لأنه بك متمـايز) ورابعهم حافظ بك إبراهيم (لأنه أحرز الـرتبة أخيـرا) ويلى ذلك خليل أفـندى مطران (لأنه حـامل

نيـشان) فطائفـة الأفندية والمشـائخ وهلم جرا كـأنما يرتبـونهم فى ديوان التشـريفات لا فى ديوان الآداب !!! فبـذلك وما شاكله اعـتاد الناس أن يسمـعوا اسم شـوقى مشـفوعـا بأفخم الألقـاب غارقا فى صـيغ الأطناب والاعجاب . وكأنه يخشى أن ينسى الجـمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه إلا أن تكرر تلك الصـيغ فى كل مرة يذكر فيها اسـمه . ففى كل قصيـدة هو شاعر الشرق والغرب وشـاعر العرب والعجم وأميـر الشعراء وسيد الأدباء ، وليت شـعرى ما ضرورة هذا التكرار كله أن كان مفـهوما بذاته ؟؟ ولما رسخت هذه الألقـاب المأجورة صدقهـا العامة وأشبـاه العامة ومن يجاملون السـمعة والوجـاهة فتناقلوها ورددوها - ولم لا يصدقـونها ويرددونهـا وأكثـرهم لا يعنى من الأدب بكثـيـر ولا قليل ، وجلهم أنما يعرفه بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟؟ فـإن كان فى الأمر موضع للعجب فهو أن تسمع ثناء متكررا ولا تسمع نقدا - مع أن الاغراق فى الثناء أحجى أن يغـوى بالمنافسـة ويكثـر من النقاد. ومتى علـمت علة السكوت فقـد زال موضع العجب .

وأظن السن قد فعلت فعلها فى نفس هذا المعذب بمرض الصيت فغلبه الشك وزاده شحـا وقلقا فـأصبح لا يقنعه أن يعلل بـالدهان ، ويؤكد له التفرد والرجـحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه علـى الخلق قاطبة ، فلا يروي لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن إلى شهرته شهرة . وإلا فعقوبة من يرتكب جريمة الاجادة معروفة !! وما أطول عذابه أن لج به هذا الوسـواس !! وان المحنة لتستدر الرحـمة ولكن

أرحم الناس خليق أن يضحك ممن يخال أنه يعقم بطن الطبيعة ويسد الآذان ويضيق رحب الفضاء بالأجرة .

ولو شئنا لاتخذنا من كلف شوقى بتواتر المدح دليلا على جهله بأطوار النفوس فإن الأذان أشد ما تكون استعدادا لقبول الذم إذا شبعت من المدح وأسرع ما تكون إلى التغير إذا طالت النغمة ، وإذا تعود الناس أن يسمعوا ضربا واحدا من الكلام عن إنسان تاقوا إلى سماع كلام عنه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة وأكبر ذنبه عندها أنها أفرطت فى محاباته ، فهل يدرى شوقى أنه يؤجر أذنابه على النيل منه حين يبذل الأجر على المبالغة فى مدحه ؟؟ أنه لا يدرى ولا يبرئ المريض أن يدرى بدائه .

وعلى نفسها جنت براقش ، فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن أسلحتهم ونضطرهم إلى العدول عن أساليبهم المستهجنة يأسا من صلاحها فى هذه الأيام . إذ يعلمون أنها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس أقدارهم الا ريثما تنكشف أسرارهم. ونقول لشوقى أن سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فإن كان يكربه أن يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى إلا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا أبرد عليها وغرة قيظها. وأنه ليلذ لنا أن نكون نحن حربه وبلاءه وأن نستطيع الادالة للحق من الباطل فى غرض من الأغراض فأنها لذة نادرة فى هذا العالم .

وأنه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فإن أبلغ ما يكون العيب إذا كان فاشيا ، وأضر ما يكون إذا كان متخذا نموذجا للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الأمر أن يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن أنها قصيدة رديئة فإن الذوق والتمييز إذا اختلا لم يكن اختلالهما فى الأدب وحده . وأنت إذا استطعت أن تهدى الطبقة المتأدبة من أمة إلى القياس الصحيح فى تقدير الشعر فقد هديتهم إلى القياس الصحيح فى كل شىء ومنحتهم مالا مزيد لمانح عليه . وأن الأمم تختلف ما تختلف فى الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها أجمعه إلى فرق واحد : هو الفرق فى الحالة النفسية أو بالحرى الفرق فى الشعور وفى صحة تمييز صميمه من زيفه إذا عرض عليها فكرا وقولا أو صناعة وعملا . فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر المحدود أو القاصر على القشور ولكنه من أعم أنواع الأصلاح وأعمقها . وسنتناول شعر شوقى قصيدة قصيدة أو معنى معنى حتى نتبين الأثر جليا فى تحول الآراء وسلامة القياس ، وسيرى القراء أننا نغلظ له البلاغ ونصحه صحخا شديدا . وكذلك ينبغى أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالعقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الأفواه وتسخير المأجورين . على أننا لا نحتاج أن نقول أن ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفى غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارئ ليقتنع بما نقول فإننا لا نسأل أحدا اقتناعه . ومن كان يحتكم برأيه إلى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا أن نوجه لمثله كلاما . وأنا لبادئون .

رثاء فــريد

أصاب شوقى حين قال أن قصيدته فى رثاء فريد من خيرة قصائده . فإنها في مستوى أحسن شعره الأول والأخير، وهى صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهتف لها المخلصون من المعجـبين به والذين يتلقـون حكمهم عليـه من ديباجـات الصحف ، ولكانت حجـرا فى بناء شهرتـه ، لأنها من نوع ذلك الشعـر الذى كان يشتهـر به الشاعر فى تلك الفتـرة ، وفيها مزاياه ومـحاسنه التى لم يكن للشعـر مزايا ومحـاسن غيرها. فـقد كان العهـد الماضى عهد ركـاكة فى الأسلوب وتعثر فى الصياغة تنبوبه الأذن، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق إلى جملة مستويـة النسق أو بيت سائغ الجرس فيسير مسير الأمثـال وتستعذبه الأفواه لسهولة مجـراه على اللسان . وكان سبك الحروف ورصف الكلمات ومرونة اللفظ أصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الأساليب ووعورة التعبير باللغـة المقبولة - فإذا قيل أن هذه القصيدة يتلوها القارئ «كالماء الجارى» فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية .

وإذا اشتهـر شاعر بالاجـادة فليس للاجادة عندهم معنى غيـر القدرة على «الكلام النحـوى الحلو» وهذه هى قدرة شوقى التى مـارسها واحـتال عليـها بطول المران والتى هى مـزية قـصيـدته فى رثاء فريد وفى أحـسن قصائده .مـضى الجيل الفائت وجاء جـيل بعده كثر فـيه تداول الدواوين

البليغة والرسائل الرصينة وأخرجت المطابع مئات الكتب التى صاغها أقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها «النحوية الحلوة» وترجمت الأسفار الأفرنجية أو أطلع عليها الناشئة فى لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفنى أو الأدبى. وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت على الأسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذا بال فتعوّد القارئ أن يبحث عن المعنى بل لا يكفى القارئ المطلع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله . فمزية شوقى عند هذا الجيل الناشئ من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لتبحث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقى إليهم القصيدة ولا يسمع لها رنة ذلك الصدى ، وطفق أذكياء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة فى ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، أغترارا بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا أصاب شوقى» ؟؟ ويغالط قراؤه الأقدمون أنفسهم فيخيل إليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيرا من هذا الشعر ، وقد يعزون الاختلاف إلى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ولو كفّوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون به على الذكرى ، وحديثه الذى يغصبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون – لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقى الأمس هو شوقى اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب فى

ذلك ولا في بقائهم على احلال شوقي محله الأول مع انحدار شعره في نظرهم . فانهم يرولن منزلة شوقي بالعادة التي لم تتغير منذ قدروه للمرة الأولى. ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذي نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمد شوقي في مكانه لأنه جعل اطراء الناس غايته فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس أن القارئ يرتقي في الاختيار أضعاف ما يرتقي الشاعر في الأداء والابتكار . وقلما يرتقي الشاعر بعد الأربعين فانّ أخصب أيام الشعر أيامُ الشباب . وإذا ارتقى فانما يكون ذلك باحتثاث الطبع وادمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقي لم يجد من نفسه ولا من الناس داعيا إلى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد أحس شوقي بالتغير من حوله فآده أن يستدركه وأعيته الزيادة في سن التقهقر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزاد ترويج السلعة كلما خيف عليها الكساد . ولما سئل عن غرضه من قصيدته في فريد وقرئ له في نقدها مالا يجب بهت على ما سمعت وقال : تلك قصيدة أردت بها الكلام في فلسفة الموت . . .

فلننظر اذن فلسفة الموت التي استنبطتها حكمة شوقي :

تعود أيها القارئ إلى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين إلا كل ما هو أخس من بضاعتهم وأبخس من فلسفتهم – كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز إذ ينادون

فى الأزقة والسبل : «دنيا غرور كله فإن ، الذى عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا التقاه » إلخ . . . إلخ .

تلك أقوال الشحاذين وهذه أقوال (أمير) الشعراء .

كل حى على المنيسة غساد ... تتوالى الركاب والموت حاد

ذهب الأولون قرنا فقرنا ... لم يدم حاضر ولم يبق باد

هل ترى منهم وتسمع عنهم ... غير باقى مآثر وايادى

إلخ ... إلخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحنى الابتكار ونزع فيه إلى الاستقلال بالرأى فمعناه أحط من ذلك معدنا وأقل طائلا وأفشل مضمونا . والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق التمرينات الابتدائية «كالزبيب من العنب و ٢ + ٢ = ٤ » وهلم جرا . وأكثره آتفه من هذه الطبقة فالقصيدة أما بيت حذفه وأثباته سواء أو بيت حذفه أفضل ، مثل أخباره بأن جر النعش فى مركبة أو حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زيدت جلالا ... منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذى ما أحسب أحدا يمر بقبر فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيبة فى نفسه هزؤا وعبثا . وذاك حيث يقول:

كل قبر من جانب القفر يبدو ... علم الحق أو منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر فى جغرافية شوقى الأخروية : «أنه

منار يقام على جانب أحدهم القفر لهداية قوافل الموتى إلى طريق الآخرة لئلا يضل أحدهم النهج أو يصطدم بصخرة فى دروب الموت !!» ومثل تحذيره الناس من تربص الأجل بهم أيقاظا ونياما كأنما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهودة .

وعلى نائم وسهران فيها   أجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تيئيسه من رجعة الموت إلى أهله وتخطئته الذين يزعمون غير هذا الزعم يقول ذلك بلهجة العارف لما يجهله غيره كأنها مسألة خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها أحزاب الفلسفة ولم يفرغ الناس يوما من بحثها وتقليب وجوهها والتنقيب عن أسانيدها وشواهدها حتى جاء شوقى ففض الخلاف ببيتيه هذين .

سر مع العمر حيث شئت تؤوبا   وافقد العمر لا تؤب من رقاد
ذلك الحق لا الذى زعموه   فى قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان أهل الميت إذا مات فى برلين أو لندن أو الهند لا يزالون يترجون يوم أوبته ، ويعدون أيام غربته ، وكأن العلماء فى كل قطر وبلد يتساءلون لمن مات غريبا عن دياره أيؤوب إلى أهله يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتعا بالعافية أو لا يؤب ؟؟ فكان فريق منهم يقول «نعم» وفريق يقول «بل لا» إلى أن جاء شوقى فأفتى فتواه الجازمة وقال «بل لا يؤب» فانحسم الأشكال وقطعت جهيزة كل خطيب .

قال ناقد أديب : أن الشاعر مسبوق إلى هذا الحل ، سبقه إليه قائل المثل العامى «اعطنى عمرا وأرمنى فى البحر» وأنه كان أسوأ منه تعبيرا وأقل ظرفا إذ يخاطب القارئ بقوله «أفقد العمر» وذلك العامى يتلطف أن يجبه الناس بهذا الخطاب ونقول : أن توارد الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فإن من يتجشم لأجل الانسانية أن يغوص على هذه المسائل العويصة ويسهر الليالى فى فض مغلقاتها وحل مشكلاتها لحقيق بأن يتجاوز له الناس عن حسن المخاطبة ولا يكلفوه أن يأبه لمثل هذه الهنات !!

ولنعد إلى ما كنا فيه من نقل أبيات شوقى التى لم يرد فى فلسفة الشحاذين مثلها – فمن هذه الأبيات نبأ عجيب فحواه أن فى العالمين نعلشا واحدا تنقلهم أعواده من عهد عاد .

تستريح المطى يوما وهذى　　　تنقل العالمين من عهد عاد

فان لم يكن يعنى هذا ويزعم أن الأمم لا تملك منذ وجدت غير نعش واحد تنقل عليه موتاها فسبحان من يعلم مراده . والا فان كان يعنى أن هذه الخشبة التى ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى وتجدد فأى شئ لا يمكن أن يقال فيه ذلك !! أية مطية لا تنقل العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال أى انسان لا يقول اليوم أو بعد مائة جيل أنه ركب مركبة فرعون ونام على سرير قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانا　　　وطوت من ملاعب وجياد

شاعر عصرى ولا شك !! ألا تراه يدين بكروية الأرض ؟؟ ولكننا نخشى أن لا يكون شوقى قد ذكر الكرة إلا ليذكر بعدها الصولجان والملاعب والجياد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منه ، فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟؟ أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها . وأنت إذا نقلت هذا البيت إلى أية لغة لم يكن معناه إلا هكذا : «هذه الغبراء أسقطت من أيدى الملوك قضبا كثيرة ودثرت ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وأبادت خيلا لا تحصى» - فما أشبه الحكماء بالمغرورين أن كانت ثرثرة كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة .

ويقول :

تطلع الشمس حيث تطلع صبحا ... وتنحى لمنجل حصّاد

تلك حمراء فى السماء وهذا ... أعوج النصل من مراس الجلاد

اليوم لا تخشى بغتة الأجل فى كل حين !! فالشمس لا تضرج بدم قتلاها الا حيث تطلع صبحا (أى حين تطلع حمراء وفى السماء . أما أن طلعت فى الأرض فهذا شىء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا إلا فى أيام الألهة أو المحاق وفيما عدا هذه الأويقات لا قتل ولا حصاد فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربى فلا تصدقوه فان موته باطل . . .

إلا أن شعرا يسف إلى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب الا رغل الصناعة لا جزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا إليه همهم ولم يتوسلوا به إلى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكأن الناس فقدوا قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا إلى الهلال فإذا هو أعوج معقوف فطلبوا له شبها ، وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسى ، لأنه لن يهرب يوما فنقتفى أثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه وأن كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يبثه فى نفوسنا من حنين أو وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم هو كالخلخال ثم رأوا أن لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشببوا بها إلى آخر ما تتدهور إليه هذه الأوهام . وأفتن قوم فقالوا هو كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ فى فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟؟ هذر فى هذر . وجاء شوقى فقال أنه منجل يحصد الأعمار فأخطأ حتى التشبيه

الحسى لأن الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب ، وأما فى سائر الأيام فلا يكون القمر منجلا فى شكل ولا فى حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الأرض :

والغبار الذى على صفحتيها ... دوران الرحى على الأجساد

وذلك من قول أبى العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ... ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ولا بأس بهذا التمثيل ، واقترض للطحن رحى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده الاستطراد ، فعز على شوقى إلا أن يكون لهذا الطحين غبار وأن يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو ذوران الرحى . عند هذا يركد العقل ويجم الكلام .

ولم أفهم البيتين الآتيين بعد قوله : «تلك حمراء فى السماء .. إلخ» .

ليت شعرى تعمدا واصرا ... أم أعانا جناية الميلاد ؟

كذب الأزهران ما الأمر إلا ... قدر رائح بما شاء غاد

يعنى الشمس والقمر . فما التعمد والاصرار وما أعانة جناية الميلاد وما الفرق بينهما ؟؟ أيريد أن يطبق على الأزهرين المادة القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق اصرار ؟؟ وفيم كذبا وكيف يكون جريان الشمس والقمر فى حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما للقدر الرائح الغادى ؟؟

وهل التعمد والاصرار واعانة الميلاد إلا رواح القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم فى ذلك على شاعر الأنس والجن فلعل هذه من أبياته التى صنعها لاخواننا الجن واختصهم بها دوننا .

ويقول فى نعش فريد أو حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لهـا الزمـام لجـاءت وحـدها بالشـهيـد دار الرشـاد

أما دار الرشاد فهى مصر كما أرادت القافية لا كما أراد شوقى ولا كما أراد التاريخ والأثر . وأما معنى البيت فيقول شوقى أن نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه إلى مصر لسعى وحده إلى مصر !! فالله ما أقدر راثى الشموس على احالة الجليل مضحكا والتقديس زراية : نعش يسعى وحده فى البرور والبحار ويجوس خلال المدائن والديار ، يعتدل وينعطف ، ويمضى ويقف ، حتى يستقر ملهما عند قبره ، جادا لا يلوى على شىء قبل بلوغه ، والناس متنحون عن طريقه ، تاركيه يتهدى لطيته . . أفمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والاجلال ؟؟ ألا ساء ما أصاب ذكرى الرجل من إجلال شوقى . أراد أن يقول كما قال البحترى :

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

فكبا كبوة حاطمة .

ولقد طمح شوقى إلى معارضة المعرى فى قصيدة من غرر شعره لم ينظم مثلها فى لغة العرب ولا نذكر أننا أطلعنا فى شعر العرب على خير

منها فى موضوعها . والمعرى رجل تيمم هذه الحياة محرابا واجتواها غابا وصدف عنها سرابا – لابس منها خفايا أسرارها، واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غوابر آثارها ، وحواضر أطوارها ، فإذا هو نظم فى فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله وتلك سبيله . وأين شوقى من هذا المقام ؟؟ أنه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة للذة يباشرها أو تباشره وأعمق ما هبط إلى نفسه من آلامها اعراضة أمير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر فى فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق إلى وهم شوقى أننا نكبر قصيدة المعرى تعصبا للقديم وايثارا للعرب على العجم يلقى إليها ها هنا درسا فى الشعر قد ينفعه .

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها . وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه وأنما مزيته أن يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع وانما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم فى نفس أخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . وإذا كان ركدك من التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شىء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة

مما انطبع فى ذات نفسك . ما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر ما يضئ عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا أن صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان احساسا بوجوده . وصفوة القول أن المحك الذى لا يخطئ فى نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره : فان كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وأن كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما أخال غيره كلاما أشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فان تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى التى اجترأت على معارضتها .

نظر المعرى إلى سر الموت فلم يره فى مظهره الضيق القريب ،

حادثا متكررا تختم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة العميمة. رآه كما بدا منذ القدم لبدائه الحكماء وأصحاب الأديان ، وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس وماني : حربا سرمدية قائمة بين قوتين خفيتين ميدانهما كل نفس حية وكل ذرة فى طباق الأرضين وأجواز السماوات – هاتان القوتان هما الخير والشر أو هما النور والظلام أو هما الحق والباطل أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، وأعوان لاتني تقبل وتدبر ولا تتمهل. والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها إلى ختام الزمان أن كان للزمان ختام .

نظر المعرى إلى العالم الأرضى لم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نحبا مقضيا ما أحس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما فى كل كيان قائم ، متقادما فى كل ركن متقادم :

كل بيت للهدم ما تبتنى الور   قاء والسيد الرفيع العماد

وعلم أن القوتين اللتين هذا أثر نضالهما فى الأرض فاعلتان هذا الفعل لا محالة فى أشرف كواكب السماء وأسماها ، وأضوأ عوالم النور وأذكاها .

زحل اشرف الكواكب دارا   من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حدثان الدهر   مطف وان علت فى اتقاد
والثريا رهينة بافتراق الشمل   حتى تعد فى الأفراد

لا بل رأى الكون[1] والفساد متصاحبين متلاحقين فى كل حال .

واللبــيب اللبــيب مــن ليس يغــتر بكون مـصيره للفــساد

وكانت العـبرة التى استخلصـها من هذه الحقائق عـبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمـد ، فوق افراح الانسان واحزانه ، ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :

غيـر مجـد فى ملتى واعتـقادى نـوح باك ولا تـرنم شــــاد
وشـبيه صوت النعى إذا قـيس بصـوت البـشيـر فى كل ناد

وإذا ذكر مـتاعب الحيـاة فكأنما يذكرها ليصـرفها عنـه بنظره القانط المستخف فيقول :

تعب كلهـا الحيـاة فما أعـجب إلا مـن راغـب فـى ازديـاد
أن حزنا فى ساعة الموت أضعاف سـرور فى سـاعــة الميـلاد
أسف غـيـر نافع واجتــهاد لا يؤدى إلى غناء واجتـهاد

كذلك كـان إحساس المعـرى بسر الموت ، وهو أوسع احســاس قدر لبشرى أن يحسه من ذلك السر الرهيب .

أما أنت فقد نظرت فماذا رأيت ؟؟ لعلك أدرى بما تنظر وترى ولكنا نقول لك ما لست تدريه . أنك لم تر شيـئا يحتاج الناظر فى رؤيته إلى

(١) الكون هنا وفى البيت مصدر كان بمعنى حال الوجود لا بمعنى العالم .

غيـر الحواس – انك تقـول «لم يدم حاضـر ولم يبق باد» حيـث يسوى المعـرى بـين وكـر الورقاء ومـعـاقل العظمـاء وبين منازل الأرض ودارات السماء . أردت أن تعمم كما عمم ففـاتك مغزى تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى قـشوره ، إذ ما علمنا بين الحضر والـبدو من فرق فى التكوين يدعو إلى توهم الاختلاف بيـنهما فى حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سـمعه الحاضـر والبادى لأن أحدهما قـد يسمع ما ليس يسـمعه الآخر لتباعد الدار أو انقطاع الأخبار ويقولون يتسابق إليه الحاضر والبادى لمثل هذا السـبب . وأما قـولك يموت من فى الحاضـرة والبادية فكـعدك الناس اسما اسمـا وقولك عن كل واحد أنه يموت ، وعلى أنه لو صح أن يقال هذا فـأى فـضل فيه لغـير الحواس وأى دليل فـيه على اللب الحكيم والطبع القويم ؟؟ وتقول فى القبر أنه منار المعاد .

وزمـام الركـاب مـن كل فج ... ومـحط الرحـال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق فى هذا الحكم ؟؟ وتقول :

وعلى نـائم وسـهـران منهـا ... قـدر لا ينام المرصـاد

وهذا كذاك بل أضعف أما قولك .

لبـد سـاقـه الردى وأظن ... النسـر من سهمه على ميعـاد

فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .

وإذا تجاوزنا هذا الباب إلى غيره وعمدنا إلى مقارنة الأبيات المتشابهة

فى القصيدتين الفيناك تخطئ فى كل بيت تسرقه من المعرى أو تأتى بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .

المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحدا مرارا	ضاحك من تزاحم الاضداد
ودفين على بقايا دفين	فى طويل الأزمان والأباد

وليس أجل ولا أصدق من هذا الشعر . وأن تعبيره عن تعاقب الدفين بعد الدفين فى الموضع الواحد بتزاحم الإضاد وقوله أن اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان فى وصف تهكم الموت بالأحياء وعبث التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحاكى هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل ترى التراب أحسن عدلا	وقياما على حقوق العباد
نزل الأقوياء فيه على	الضعفى وحل الملوك بالزهاد
صفحات نقية كقلوب	الرسل مغسولة من الأحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم أحسن صيانة لأنه يبيدهم جميعا !! فبحقك يا هذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟؟ وما الذى لقيه أضعف العباد من أقواهم وأظلمهم أشد من هذا الانصاف والصيانة ؟؟ ويخيل إليك أنك أبدعت حين قلت أن الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب ، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى أن الزهاد لا يستضيفون

الملوك فيه على السواء ؟؟ فإن كنت لا تعنى ذلك فقد قلبت ما تعلم أنه خطأ وقلته لغير غرض - أما المعرى فقد أحاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئا من الصدق أو بلاغه الأسلوب حين قال :

وعزيز على خلط الليالى رم اقدامكم برم الهوادى

وهذه هى البلاغة الجادة التى لا لعب فيها .

وعندك أن طهارة القلب هى موته . فإذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيا مغسولا كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب أن لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟؟

يقول المعرى :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وأنت تقول :

والغبار الذى على صفحتيها دوران الرحى على الأجساد

المعرى يسأل :

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد

وأنت تأبى أن لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكى فتقول :

ضاق عن ثكلها البكى فتغنت رب ثكل سمعته من شاد

ثم يروقك وأنت تبارى المعرى مباراة المضحكين أن تزعم لناجيتك

ولنفسك أنك نظمت في فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة في آية من آياته !!

على أنك قد تعذر بعض العذر في قصورك من هذه الناحية لأنك مجبر فيه لا مخير . أما الأمر الذى لا نعلم لك منه عذرا فأن ترثى رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضا ، وأن لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس ، ولو كان ذاك لضيق فى مضطرب القول أن لنقص فى بواعث الأسى على الرجل لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم أن مصر الحديثة لم تنجب من دعاتها رجلا لقى فى حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن ويطيل مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك فى قضاء حقه وتوفية قدره لا يكون إلا لعجز أو كنود . فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلأحنة لا تزال تغلى فى نفسك على الرجل بعد موته . وأنت بأسبابها أعلم .

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق أن يقصد المرء المدح فيقذع فى الهجاء ، أو ينوى الذم فيأتى بما ليس يفهم منه غير الثناء . وأشد من ذلك ايغالا فى سقم الذوق وتغلغلا فى رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو فى موقف التأبين والرثاء والعبرة بالفناء .

وليست أدرى أى ما جن من نظامينا قال هذا البيت فى رثاء احدى القيان :

رحمة العود والكمنجا عليها　　　وصلاة المزمار والقانون

لكن لا ريب أن قائله ، مهما سمج من الهذر فى مثل هذا الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بفن الغناء واقدار ذويه - أسلم ذوقا فى بيته هذا من شوقى فى رثائه لعثمان غالب . لأنه تعمد الهزل فقال وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء .

ضجت لمصرع غالب　　　فى الأرض (مملكة النبات)
أمست (بنيجان) عليـ　　　ـه من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لغيـ　　　ـبته واقعدت الجهات !!!
فى مأتم تلقى الطبيـ　　　ـعة فيه بين النائحات

وترى (نجــــوم الأرض) مـن　　جــزع مــوائد كــاسـفــات
والزهـر فى أكـــمــامــه　　يــبكـى بدمـع الـغـــاديـات
حـــبـــست اقـــاحى الـربى　　والعـهـد فيـهـا مـومضـات !!
وشـــقـــائق الـنعـــمـــان آ　　بت بالخـدود مـخـمـشـات

بل مما لا مراء فـيه أن صـاحب هذا الرثاء قد صدق نـية الرثاء وبر بوعده لنفسه واغتبط بما دب عليه مـن المعانى الدقيقة والنكات الأنيقة. . . لأنه استطاع أن يذكر الزهر بمناسبة ولو فى غير موضعها ، ولعمرى كيف يكون شاعـرا من لا يذكر الزهر أو الثمـر كما يذكر العـابد الله والعاشق ليلاه . يذكرهما فى غضبـه ورضاه. وفى لهوه وبلواه ، وفى فرحه وبكاه ، وفى غيظه وهواه ، وفى يقظته وكراه - ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينة الآهلة ، وحين يروى عن النعمة السابغة أو يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مـدلها بفتن الجـمال من إذا وصف الجـثة الحـائلة ، لم يقل أنها صفراء كالاقحوانة ، أو المتميز من الخنـق لم يحسب أنه يتفلق كما تتفلق الرمانة ، أو المتدلى من المشـنقة لم ير أنه يهتـز اهتزاز البـانة ، أو قطع الرقاب والعيـاذ بالله لم يشبهه بقطف الريحـانة !! وشوقى لم يوف هذا الفرض فحسب بل أرانا أن الأزهار لا تجـرى على سنن المجاملة في النواح ، فعل النساء ، وإنما تجـزن على من هى غرس يديه وجنى معـرفته ونبت نعمـته ورعايته . فلو فـجعت البلاد مثلا بموت عالم من علمـاء المعادن لما سمح لزهرة واحدة أن تذيل دمـعة أسفـا لفرقتـه وانما كان لا يضيق به الخـيال

الفسيح والذوق المليح فكان يجعل أسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمودا لهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمرار النحاس احتقانا ، ولين القصدير ذوابانا ، إلى آخر ما هنالك من ألوان العذاب التى تلم بالمعادن الصلاب - ولو كانت النكبة فى عالم «جيولوجى» لما قال شيئا من ذلك بل كان يقول (مثلا) أن الطبقة الرملية في ناحية كذا تحثو التراب على رأسها فزعا ورعبا ، وأن الطبقة الجيرية فى موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وأن هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو تزلزل بها الكمد وناهيك ما كان يقوله لو نفذ القضاء فى شاعر جليل فانه أبقاه الله لن يقنع بأقل من الحاق الزحاف والأقواء والخبن والسناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر إلى يوم يبعثه من القبر الذى الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون ، وأى تفسير أو تأويل كنت لاتسمعه من الشاعر الندابة فى صهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب ونقيق الضفادع لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه فاننا أن احتملنا حداد الألوان والأشكال فلن نطيق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه !! لابد من التضحية ، لابد من الفقدان والخسارة فى هذه الدنيا الفانية !! وليس من السهل أن يقول الإنسان أن الأشجار قامت على «ساق» واقعدت الجهات الست التى ما برحت قاعدة فى مكانها منذ الأزل ، ولا من الهين أن يحشر الطبيعة «لا أكثر» فى مأتم تكون فيه

احدى النائحـات «فقط» ولا من اللعب أن يصل فى كل سـاعة إلى ابكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار - ولاسيمـا النفسية منها - كلا ليس ذلك بالقول الهـزل ولا بالمركب السهل ، ولكى يقـوم الرجل الفانى منا هذا القول ويهبط إلى قرار هذه المعانى العمـيقة ، لا غنى له عن التضحية بالذوق السليم والوصـف الصادق والتسخـيل الصحـيح والشـعر الجـدى والشعور القوى ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولا مـبالاة . . . تقول ولكنه مع ذلك كان سخـيفا غثا ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . ونقول هذا صحيح لكنه قال ما أراد أن يقـــول وتفنن وروى . أجل !! انه لم يـرث ذلك الرثاء المكشــــوف المفتوح الذى يرثيه أولئك السذج البلهاء ، الذين يحسبون أن الاخصائيين إذا ماتوا فجعـوا أحدا غير المواد التى تفرغوا لدرسـها وتوفروا على البحث فيها ، والذيـن إذا أودى أحد أولئك الاخصائيين اسفوا ووصـفوا أسفهم هم عليه (مبـاشرة) ولم يتخلوا عن مهمة الحـزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غـارب السحـاب تارة أخرى ، أو يكلـوها إلى الطبيـعة كلهـا بارضهـا وسمائها وأمـواتها وأحيـائها ويجعلوا النفس الإنسـانية أو نفس المصاب بالبلية ، آخر من يحس فى هذا الكون بفقد عزيز !!

ولقـد كنا نود أن نقف عند هذا الحـد فى الأبانة عن براعـة شـوقى وافتنانه ، والاشادة بخلابته وبيانه . لولا أننا آثرنا أن لا يفوتنا سؤاله عن

أنواع من النبات لم يسمها فى تلك المناحة التى أقامها - ماذا كان فى شأن القطن بأصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والقثاء فى ذلك المأتم العميم الذى كانت الطبيعة فيه احدى النائحات «فقط» ؟؟ أنه سكت عن هذه الأنواع وغيرها فهل ذاك لأنها لم تكن من اتباع النباتى الكبير أم لأن من خواص تلك الأنواع التى يعلمها الشعراء ويجهلها النباتيون أنها مضيعة للعهد ناكرة للجميل ؟؟ أم لعلها لا تنتمى إلى عالم النبات وأن ردها الناس إليه ،كالمرجان يحسبه قوم نباتا ويحسبه آخرون جمادا وهو من عالم الحيوان ؟؟ أم هو الصدق فى الخبر والأمانة فى التبليغ أوحيا إليه ما قال فذكر فريقا وسكت عن فريق: رأى الرجل الاقاحى باهتة ذابلة على غيرعهدها وأبصر شقائق النعمان تخمش خدودها فابرأ ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئا فربأ بشعره عن شهادة الزور والتخرص وسجل عليها ما سجل من جمود الطبائع وقسوة القلوب ؟؟ تلك أسئلة ما كنا نسألها لولا أهميتها وخطورتها ولولا أننا تعلمنا منذ الان أن نرقب أعين كل جامد ونابت وحى ، حاشا الإنسان ، تعرفا لجلائل الأنباء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار البرق ويطير بها النجابون ، ولو أننا عرفنا ماذا ينبغى أن تحذر الأمة من موت الاخصائيين من رجالاتها ، وأنها مسئولة أن تضن بأرواجهم مخافة أن تمتقع نرجسة أو تسود فحمة . . .

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى إلى رثاء العالم الطبيب فقال مفصلا مقسما :

أما مصاب الطب فيه ... فسل به ملأ الأساة
أودى الحمام بشيخهم ... ومآبهم فى المعضلات
ملقى الدروس المسفرات ... عن الغروس المثمرات

والقارئ يرى أنه لم ينح نحوه الأول . وما كان ذلك بلا ريب استهجانا له أو توبة عنه وانما خانته القريحة وخذله الاختراع . وإلا فماذا كان يمنعه أن يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة - مثل هذه الأبيات :

طربت لمصرع غالب ... فى الأرض رسل الحميات
قد مات (غالب) جندها ... فتمردت بعد (الممات)
أمنت جراثيم الملاريا ... من سرور (ظاهرات)
وتفرق التيفوس والـ ... تيفود فى كل الجهات
وتألب المكروب والـ ... ـبكتريا بعد الشتات
وبكت قوارير الصيادل ... بالدموع السائلات

فهذه أبيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد للشاعر المجيد. ومن لم يعجبه تقليدنا فليل لنا فيم أخطأنا المحاكاة وخالفنا الاحتذاء ونددنا عن القياس ولكأننا بصاحب «الامتياز» الأصلى يعض بنانه ندما على فوات هذه التتمة الصالحة فأنه ليس أغص للنفس من فرصة يلوح لها تأتيها بعد معالجتها واليأس منها .

كذلك يؤبنون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتهكمون ؟؟ وأما والله لو توخى هذا الذى شمر لتأبين عثمان غالب أن يمازح الرجل بكلام يعرض له فيه بعمله وصناعته مسترسلا فى الدعابة مستهترا بالمجون متبسطا فى الفكاهة لما استطاع أن يضرب على أوقع من هذه النغمة . فليت شعرى بأى ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين تباعد القطبين ؟؟ أبذوق الشاعر المفطور الذى يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر ، والذى لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟؟ يقولون أن اذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر ينبغى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الأحساس المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمير شعراء لا يميز بين احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان أحدهما لا تحسه النفس إلا فى أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط والانشراح ، والثانى انما يخامرها فى أقدس مواقف الموت وأجلها موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته . . !! ألا هكذا فليمت الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن فى دار الخلود .

مه ! مه ! أن من السخف لما تعافه الجبلة وتتقزز منه النفس تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذى تمونا بلادة الأغبياء بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع وأقذره لأنه كالورم الذى يخيل إلى الغر من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن ورونق الصبا فيهوى إليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززا أن يرى الدمامل مقبلة مرموقة .

ومن نظر إلى عشرة ممسوخين فى بقعة واحدة فاشمأزت نفسه من رؤية عاهاتهم ومقاذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره بل هو لا يروق الا لما فيه من غثاثة وعوار - خلائق كل ما نستطيع أن نعلل به هذا الاعوجاج فى طبائعها واذواقها أنها تلفت لفرط ما أخلدت إلى الكسل والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التى بقى لهـا أن تعنى بها وتكثرت ونغلت لشدة ما توالى عليها من عنت الدهر وذل الحوادث وألحاح الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء اللازب شر ما تمنى به نفس بشرية : أعقبها العجز عن احتمال الجد والتماسل فى الهزل واللجاج في السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدنا لها بل كادت تكون خلقا ثابتا فيها . وساء فهمهم للذوق السليم فأصبح جهد الذوق فى زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنث الترف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الذوق الانسانى وحسن استعداده وانما همـا نقيض هذا الذوق وأقرب إلى الوحشية منهما إلى الإنسانية - ألا ترى إلى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش أحشاءهم وتقضم عظامهم وتلـغ فى دمائهم وهم يسمعون أنينهم ويتلذذون بأوجاعهم كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب!! فإذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان فى ذلك العهد !!

كانوا فى عـهدهم الذى بلغوا فيـه من الترف ونعومة الأخـلاق مالم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

(وبعد) فكأنما فرغ صـاحبنا من التدليل على فسـاد الذوق فانتقل إلى عيب آخر من عـيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعـلامات ألا وهو الاحالة وعقم الـفكر . بيد أنه توفق هذه المرة إلى اثبـات هذا العيب بفـرد بيت فقال :

عـــثـمـــان قم تـر آية لله أحـيــا المومـيــات

يأمـر الشاعـر المرثى أن يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليـرى آية . . . فيـحسب السامع أن الآية التـى سيراها الدفين بعـد بعثه أعـجب واخرق لنواميس الكون من رد الميت إلى الحيـاة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم أن الأعجوبة التى يبعث الدفين من قبـره ليعجب منها هى النظر إلى ميت يبعث . . . فهل سـمعتم فى العى والاحالة مـا هو أحمق من هذا اللغط الفـارغ الخاوى ؟؟ أليس هذا كـايقاظ النائم «ليـتفـرج» على نائم يتيـقظ وكحـمل المقعـد إلى أوروبا أو أمريكا ليـمتع الطرف بـالنظر إلى مقـعد يعرض فى المسارح للمتعجبين ؟؟ وعلى أن بعث العلامة المدرج فى أكفانه أغرب وأشد استحالة من بعث الموميات التى يعنيها شوقى لأن موت الأمم مجازى لا تستغرب الرجعة منه وموت الأفراد حقيقى لا رجعة منه فى هذه الدنيـا . وعدا هذا فـان كـان القصـد من بعث الأستاذ غـالب أن يرى «المومياات» تحـيا فقد شـهد الرجل هذه المعجزة وحـضر عهدها قـبل موته

بأشهر فلا حاجة إلى قلب نظام وازعاجه فى ضريحه ، لا لشىء إلا أن يرى المعجزة التى قد رآها . . . وبعد فليذكر شوقى أن الذين يدعوهم بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فإن كان هو شاعرا لأحد فهو شاعر الموميات ، وأن كان لشهرته جد فهو اليوم الذى يقال فيه عن تلك الموميات .

خرجت بنين من الثرى وتحركت منه بنات

ثم ما هذا الولع من شاعر «الموميات» باقامة الأموات !! فهو ينادى عثمان «قم تر آية» ويصيح بسليمان «قم بساط الريح قام» ويهتف بالأستاذ الأمام شامتا «قم اليوم فسر للورى آية الموت» ويقول للشهيد فريد «قم آن اسطعت فى سريرك» وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره . . أفلم يكفه قيام الأحياء حتى يقوم له كل من فى التراب !!! .

ولم ينس شوقى براعة المقطع فختم القصيدة بأليق بيتين يتممان ما فيها من خطل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتين الختام .

الفكر جاء رسوله فاتى باحدى المعجزات
عيسى الشعور إذا مشى رد الشعوب إلى الحياة

ففى كل مختصر من عجالات علم النفس يكا يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر .

وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقـة فتسمع منهم من يقول أحيانا . «ليست هذه مسـألة عقل . هذه مـسألة احساس» أو ما فى مـعنى ذلك . ولكن شاعر العامـة لا يفطن إلى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شـيئا واحدا ثم يعكس الآية فيقول أن الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم أن الحياة هى التى تنشىء الشعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سـهوا ولا يشعر الا لهوا ولا يمارس اسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفوا لحرى أن يجعل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيـدة أوجز ما توصف به أنها نكسـة أدبرت بقائلها ثمـانية قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين فى استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك أيها القارئ شاعرا من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعا أول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فـذهب يرود أكنافها ويتحرى عجائبها ويستكنه أخلاقها وشمائل نفـوسها من آدابها وفنونها ، إلى أن سيق إليه صنيعة من صنائع شوقى فأسمعـه أن ها هنا شاعر يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقبا مزدوجـا ، فهو أما شاعر الشرق والغـرب أو شاعـر الأرض والسـماء أو شـاعـر الأنس والجن أو شاعـر الأقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين - إلى اشباه هذه الألقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحد كائنا من كان فى العالمين : وقـد تعلم أيها القـارئ أن أذكياء الغـربيين وخاصـتهم لا يألفون الأطناب والتهويل ، وأنهم يقدرون أعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الأقدمين والمحدثين عندهم بله الأنس والجن والأرض والسماء ، وأن كـان لاحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يقلب دانتى أو هوجو أو جيتى بشاعر أوروبا وان كان لكلهم

من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبعات كتبه - مسوغ لهذا اللقب . فلابد أن يلمح الشاعر الغربى فى تلك الصفات التى سمعها مغالاة وشططا . بيد أنه يجب أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وأن يعرف المعانى والمثل العليا والخيالات التى إذا نطق بها الشاعر وجد فى مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعى ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هى قصيدته فى استقبال أعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول: «تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الظباء السائرة فى الرمل ومن جماعة الظباء . . .» وهو ترجمة قول شوقى :

اثن عنان القلب واسلم به من ربرب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال «النار ! النار» و «الحصان ! الحصان» إلا أنه يتوهم أن فصائل الظباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم فى هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها عرامها . ويود لو يرى هذه الأوابد الأفريقية فما هو الا أن يسأل صاحبه فى ذلك فإذا الجواب حاضر يلقى إليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجهول : «كلا : كلا : ليس فى بلادنا ظباء مخيفة ولا أليفة - ما إلى هذا قصد شاعرنا ، وإنما هو يعنى النساء» .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تتغير ابتسامة صاحبة المترجم ويجيبه : «نعم نساء . فاننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية» .

نقول: ولا يبعد أن يرتضى الشاعر الغربى هذا التشبيه على أنه منقول عن العرب وربما قال بشئ من التهكم : «حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا أدرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلاء ، ولم تكون شوارع مصر تلوﻻ أن كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟» ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : «اذن فصاحبكم عاشق يتغنى!» .

وما أشد ما تكون دهشته إذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذاك الافتراض : «ولماذا ؟؟ أن الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الأقدمين» .

فيفاجأ الرجل ويجد أنه قد أحال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضا أن يحيل التقليد فى الغزل على اختلاف الخلق وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك فى نهضة الأمة ليكونن اذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز فى العقول : فأما أن الشرقيين ركبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث إذا أحب السلف العربى آتى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون . . . وهو مستحيل . وأما أن هؤلاء الشرقيين يعيشون فى أبان

نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرئ من قلبين فى جوف واحد .

على أنه يجنح إلى حسن الظن ويخيل إليه أنه أخذ يفهم بعض الفهم ويقول لمترجمه : «أخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا» فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « أن الغربيين كما يتسلون أحيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الأقدمين أو يتزيون بزى الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم آن يتسلوا باحتذاء أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الغابرة . رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه أنه رياضة مقبولة » .

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات يحسبها احاجى والغازا . ويظن أنه يذب عن شاعره المزدوج الألقاب حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب بالغرب من نظم القصيدة وأن قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا وأنما نظمها فى مستقبل أمة ناهضة .. وتحية لزعمائها ..

إلى هنا ينتهى العجب باليقين – فان كان الرجل قد ارتضى التقليد فى التشبيه والغزل واغتفر نقض المدينة العامرة يبابا وقلب الشوارع الممهدة

هضابا ، فـمن وراء عقله أن يرتضى استهلال الكلام فى نهـضات الأمم بالغزل صادقا كان أو مستعارا ، وأن يفهم الابتداء بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلاء ، تمهيدا للثناء على مآثر العظماء ومناقب الزعماء، وأن يئن ويتوجع ، فى حيث يفخر ويترفع ، وأن يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصح والاهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب إليه تخمينه ، وأن اعوزتـه دلائل الحكم على منحى أفكارنا وقيـمة آدابنا ومدارج نفوسنا فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيـفما شاء ولا يتحرج أن يظلم أو يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معذورا .

*

ونحن لم نمثل فى الحديث المتقدم بشاعر غربى لأن فهم هذه البسائط وقف على الغـربيين ولكن ليسـهل على الذين تغيب عـنهم بساطتـها أن يفهموا على أى وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مـجرى القواعد المصطلح عليها . والا فـأى انسان تجرد من الانخـداع بالتكرار وخلع ربقـة التـقليد لا يشـعـر لاول وهلة بالخلط الشائن فى هذا الضـرب من الشعر ؟؟ مـا الشعر الا كلام فـأن كانت له ميزة على الكلام المبتـذل فميزته أنه أجمل وأبلغ وأحسن وضـعا للمعانى فى مناسباتهـا . فهل يتكلم الرجل فى السوق والبيت فيـتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيـام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى إذا تهـيأ للشعر لم يخجل أن يخلط فى قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام فى

نسق واحد ؟؟ فلو أنه كان صادقا فى عشقه لقبح منه ذلك ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان !!

*

لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نؤى تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكى هواه ، هجيراه كلما راح أو غدا حبيبه يحن إلى لقائها أو صاحبة يترنم بموقف وداعها . فإذا راح ينظم الشعر فى الأغراض التى من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة ثم تقدم بين يدى ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء إلى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الأمراء والأجواد فى أقاصى بقاع الجزيرة يحملون إليهم المدائح يبدأونها أحيانا بوصف ما تجشموه فى سبيل الممدوح من فراق الأحبة وألم الشوق وطول الشقة وأحيانا كانوا يصفون الناقة التى تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظمأ والطوى ومواصلتها الليل بالنهار سعيا إلى الممدوح كناية عن الشوق إلى لقائه ، وكان الغرض فى الحالتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل

فى مشوبته ، فكان الابتداء بالغزل ووصف المطى فى قصائد نظمت فى المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج إلى النموذج والأستاذ فأقاموا المتقدمين أساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لايبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لايزالون يفدون على الأمصار فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الأدباء إلى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وأفرد كثيرا من الغزل فى قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نواس. ومنهم من كان يفتتح. مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك فى العظائم كما صنع أو تمام فى بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفى رائيته التى أولها .

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

وكما صنع المتنبى حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه إلى الروم فقال مفتتحا :

ذى المعالى فليعلون من تعالى هكذا هكذا والا فلا لا
حال اعدائنا عظيم وسيف الد ولة ابن السيوف اعظم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الرأى قبل شجاعة الشجعان		هو أول وهى المحل الثـــانى

وكما صنع الشريف واضرابه فى كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الأمير فى المدينة وأنه لعلى خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة مايذكر من الفلوات التى اجتازها والمطايا التى أنضاها وحقوق الصبابة التى قضاها . وكـان الواحد من هؤلاء يزج بـغزلة فى مطلع كل قـصيدة حتى فى الكوارث المدلهمة والجوائح الطـامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون. والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقـول أبواب لم تخطر لأحد من المتـقدمين على بال . . ، يجئ شـوقى فيتماجن ويتصابى فى مطلع قصيدة ينتظر بها مستقبل أمة ويقول فيها :

قد صارت الحـال إلى جدها		وانتبـه الغـافل من لعـبـه

ويجئ أناس ممن طمس الله على بصـائرهم فـيقـولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين أنه مجدد وأنه عصرى بل أنه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الغزل الذى استـحل لأجله اتيان هذه المجانة والعبث؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداع وأن حق عليه اللوم لوضعـه فى غير مـوضعه - ولكنه هو الـغزل الرث الذى ليكت معـانيه وأوصافـه ولـم يكن للنظامين والشعارير بضـاعة غيـر ترجيعه منذ عـشرة قرون . فأى سـوقه من صعاليك الدزانين لم يغـسل رجليه فى وعاء هذه

المعانى التى نضج بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعى العروض لم يقل فى وصفه : «قد يتثنى كالبانة» «أرداف مرتجه كالكثبان أى كأكوام الرمل» «خد كالورد» . «حسان كالأقمار أو كالنجوم» . «مشية كمشية القطا» . «عينان لهما سحر هارون وماروت» «ظبية الرمل» إلى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هى روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته إلى موضوعه . فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التى نشرتها الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدابرة وأنها خلو من الأسباب والحجج التى بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعرى فيه ففى بيت القصيد أو بيتيه وهما :

قطارهم كالقطر هز الثرى	وزاده خصبا على خصبه
لولا استلام الخلق أرسانه	شب فنال الشمس من عجبه

وأنه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح، ولو كان للشاعر فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن (مكره أخوك لابطل) .

ولا أسهب فى التعليق على البيتين ولكنى أروى مشاهدة يتبين منها القارئ مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وأن فى الأطفال اللاعبين خيالا أفطن وتمييزا أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين أشرطة الصور المتحركة ولاسيما الأمريكية منها مناظر خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة إلى قلوبهم . ومن أشدها غرابة المطاردات الجامحة التى تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والأوانى . وهى كثيرة لا أظن زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها - حضرت منظرا من هذه المناظرة فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة إلى أن وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكا . وما أخالهم إلا كانوا مصدقين ما يرونه وانما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال . . . فليت شاعرنا الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع ضحك الأطفال من سيارة تطير فيعلم أن طيران القطار بقاطرته ومركباته فى الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل أن يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شابا فوق الرءووس فى طريقه إلى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرساته يمنعونه ويكبحونه - لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والأمر بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا أنهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية : «الحمد لله الذى لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتك، إلخ إلخ » .

أما أن القطار كالمطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيه لا أصل له . لو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأى قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة . على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس فى الحروف . وهكذا تتعلق أشعار المقلدين بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعانى . وشوقى كما قلنا فى أول المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا فى غنى عن نقد هذا النشيد إذ كنا لم نلق أحدا يتقبله ويحله المنزلة التى أحلتـه فيـها لجنة الأغانى والألحـان . فان المنا به ألمـاما فى طريقنا فقد يـكون لذلك فائدة وهى توقيف بعض القراء على قـيمة أحكام اللجان ، وأنها فى أكثر الأحـيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديـثو عـهد بلجـان الفنون والأدب فى مصـر فقـد يجهل سـواد الناس حقـيقتـها . أما فى أوروبا فـربما بلغ من تهاون الأدباء بشـأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت علـيها بالخط العريض «لم تجزها جامعة كذا» كمـا صنعوا برسالة شـوبنهور التى كتبـها فى الأخلاق وقدمـها إلى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطة الأبد .

تصدت لجنة الأغانى للحـكم فى أناشيد الشعراء وأولت نفـسها هذه الكفاءة - وأنها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشـياء جمة قل بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة فى واحـد منها . فمن شروط الحكم فى الأناشيد الـقومية أن يكون عارفا بـالشعر ، خبيـرا بتوقيع الألحان على المعـانى ، مطلعا على أناشيـد الأمم ، بصيرا بأخـلاق الجماعـات وأطوارها النفسـية ، هذا الى استـقلال الرأى والعدل والجـهل بأسماء من يـحتكمون إليـه . فهل بين أعضاء اللجنة كـثير ممن تتوافر فيـهم هذه الشروط ؟؟ أننا نعرف من بين

أعضائها أناسا نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم فى علومهم ونراهم أهلا للحكم فى أعضل المشكلات التى تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق فى شئ لا يفيد التفوق فى كل شئ . وإذا علمت أن الرجل من الاخصائيين يقضى العمر فى فنه باحثا منقبا ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطئ ويبرم اليوم ما نقض أمس ، فأحر بك أن تعلم مبلغ أعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم يدع الحذق . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل إلى انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا فى الجلسة وقبلها نشيد شوقى المقدم إليها غفلا من الأمضاء ، لا ندرى لم تكلفوا أغفال اسمه ورأوا ذلك شرطا ضرورياً لنزاهة الحكم ثم سمحوا لأحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر فى الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء إلى رفضه ؟ بل لا ندرى لما أرجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد وتمهلت حتى يتم شوقى نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا ؟؟ أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع أنشوة واحدة ؟؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين فى احدى الفرق يلحنونه ويروضون أنفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر فى أناشيد مجهولة ، وأسرار مكتومة ؟؟ فهل سعى النشيد وحده إلى دار التمثيل ؟؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقى وحرصها على اختيار نشيده

قبلته على مـا فيه من مآخذ وعـيوب ، نبه إليهـا بعض الفضلاء ، وردته إلى صاحبه ليجـتهد فى اصلاحه قبل اذاعته من قـبلها . وذلك أن عضوا عاب قوله :

على الأخـلاق خطوا الملك وابنوا فلـيس وراءهـا للـعـــز ركن
ليس لكم بـوادى النيل عـدن ؟؟ إلخ إلخ

وقال أن البيت الثـانى منبتر ، وسأل : ما العـلاقة بين النصح ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والنيل بالكوثر ؟؟ فـوافقوه على انتقاده . وانكر بعضهم تأليف البيتين الآتيين ومعناهما :

جـعلـنا مـصـر مـلة ذى الجـلال والفـنا الصـليـب علـى الهـلال
واقـــبلنا كـــصف من عـــوال يشـد السـمـهـرى السـمـهـريا

فانتقـدوا قوله «ملة ذى الجلال» ونقل إلى أحدهم قـال : أننا نجعل مصـر وطنا يشترك فى حـبة أبناؤه ، وأما ملة ذى الجـلال فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه «ذى الجلال» وهو انتـقاد سديد فاننا أن سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الإسـلام والمسيحية واليهودية ؟؟ إنما يقال اتحدوا فى الوطن واتركوا الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا قوله «الفنا على الهلال» ولا ذكره السمهرى ، وقال آخـر أن عبارة «كصف من عـوال» أفرنجية التـركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا نجعل تبعته . ويظهر أن الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع

المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت .

نموت إليك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المفدى حيا

وكانوا قد أخذوا عليه قوله «نموت إليك» لأنها لم تسمع فى كلام صحيح فلم يستطع أصلاحها بأحسن من أن يقول «نموت رضاك مصر إلخ» - وقد نشر كذلك فى صحيفة الأخبار - فلم يقتنعوا . فجعلها أديب فى النسخ الأخيرة «نموت فداك» فاقتنعوا !!

ونذكر أيضا أنه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين جئ بهم ليحكموا فى أى الأناشيد أصلح للفخر القومى وأشد اعتلاجا فى النفس وابتعاثا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديروه فى اللحن الذى يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العاثرة ويسمعه ألوانى فتضطرم نفسه عزما ، واليائس فيهجم إلى الأمل قدما ، والعدو فيتضعضع قلبه رعبا وغما .. وليكون اللحن صوت الأمة فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والأزمات فانظر أين ذهبوا بهؤلاء المظلومين هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة ؟؟ وهل فيهم من يروى بأنغامه عن جلال الحياة وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغى أن تكون الموسيقى ؟؟ لقد علم كل إنسان أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على

هذا المعنى ولكنهـا أصـوات الذل والضراعـة والحان يـنشدها النائم فـلا يستيقظ ويسمعها الصاحى فينام .

ثم نذكـر تبرع شوقى بـالجائزة لنادى الموسـيقى . وكـان هذا وعده المعروف ولو أنه لم يعد لما دار بخلد أحـدهم أنه على غناه يطمع فى مائة جنيه يحتـجنها لنفسه فكان يهم الأعضاء أن يفـوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادى الموسيقى ، والنادى بحاجة إلى اعانة المتبرعين .

ولا ننس أن اللجنة حكـمت المويلحى ، وهو رجل تصل إليـه هدايا شوقى . على أنه تخلف عن الحضور فاضطروه إلى ارسال رايه اضطرارا . وحكمت حـافظا وقد عرف اصـحابه أنه يتـقى أن يرمى بالحسـد أن أوما بالنقد إلى قرينه . ومن غرائبه أنه كان ينحى على النشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الأعضاء فلما أعلن الأستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت .

وعلمنا غير ما تقدم أمورا لا نحـب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة فـى جمـلتها . فلنعد إلـى النشيد غيـر آبهين للحكم لـه أو عليه ، وليكن قياسنا اياه أن نلتمس فـيه أبسط الخصال التى هى قوام كل نشيد ولا يجوز أن تخلو منها الأناشيد القومية .

يشترط فى النشـيد القومى قوة العبارة وسهـولتها وأن لا يكون وعظا بل حماسـة ونخوة وأن يكون موضوعـا على لسان الشعب وموافـقا لكل زمان . وهذا أبسط ما يـطلب فى أناشيد الأمم . فهل نشـيد شوقى على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟؟

فأما قوة العبارة فليس فى النشيد بيت يدب له الدم فى عروق منشده. وكل مفاخرة أفرغت فى قالب هو أقرب إلى الأخبار منه إلى الحماسة . وأقواها قوله :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نماما أوائل علموا الأمم الرقيا

وليس فى هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لا تجد مثلها فى قول من يقول «كان لى بيت سعته كذا من الأذرع . بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، إلى آخر أوصاف المساحة . . » فأى فرق بين قص المعلومات والحماسة اذن ؟؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه تم عن أعنات المقيد المجهود فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا واستعصى الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير «سئلت» سيلت و«تهيأ» «تهيا» و «شيئا» شيا : نعوذ بالله من الشئ .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

بنى مصر مكانكم تهيا فهيا مهدوا الملك هيا
خذوا شمس النهار له حليا الم تك تاج أولكم مليا
على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
اليس لكم بوادى النيل عدن وكوثرها الذى يجرى شهيا

فـمن الذى يأمر المصـريين هنا ويناقـشهم هـذه المناقشـة ؟؟ أأجنبى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد اسـتوطأ شوقـى مطية الفلسفـة والمواعظ بعد أن ركب حـمارها ببيت واحد سوقى المعنى وهو قوله :

وانما الأمم الأخـلاق ما بقـيت ... فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وايابا فى كل مكان ومـقصد . حتى طلع لنا بأذنى حمـاره الفلسفى هذا فى مـوعظته «على الأخـلاق خطوا الملك» ولم يجد على البـاب من يقول له : يمينك أو شمالك . . فكأنمـا كان شوقى على رهان أن يخالف قواعد الأناشيد مـا أمكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق لا لأن نشيده كان كمـا وصفته اللجنة «أكفاها وأوفاها بالغـرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى أن تتسق لنشيد قـومى مصرى» فأنه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للأناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار .

وفى المقطوعـة الأولى خطأ تاريخى ما أظرفـه فى نشيد أمـة تفتـخر بتاريخها القـديم فإن الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شـاعر مصر وانما كانت مـعبودا لهم وكـانوا يزعمـون أنهم من سلالتهـا . وأما تاج الفراعنة الأول فـهو تاج مزدوج جمعـوا فيه بين تاج ملوك الصـعيد وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الأولى فى المدارس الثانوية . ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور

المعبودة أو التى يرمز بها إلى العبادات ولم تكن الشمس قط حيلة لهذه التيجان . . فياحبذا النشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعه عنوانا على جلالها بتاريخها .

ولايكلفنا القارئ أن نأخذ على شوقى مبالغته فى قوله : «خذوا شمس النار له حليا» فإننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه تأويل .

وأما الموافقة لكل زمان فإننا نرى الرجل قد حسب أننا سنظل طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به فى جميع العصور أن يتهيأ مكاننا . وأن لا نبرح نشرع فى التمهيد ونأخذ فى الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الأركان . وما علمنا شاعرا قوميا يطلب إليه أن يكون فأل الأمة وهاتف مستقبلها فينعب فيها نعيب النحس وينذرها جمودا لا تتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الآنفة ، وأجهل ما يكون هو إذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعشا البصيرة أن يكلف «ابن بجدتها» أنشاء دعاء قومى ، أى دعاء لا يعوقك دين من الأديان أن ترتله فى البيعة أو تشدو به فى الكنيسة أو تصلى به فى المسجد ، فيخيل إليه أنه إذا جمع فروق الأديان كلها فى جملة واحدة فقد أتيح له هذا الغرض . فيستشفع فى دعائه المعروف «بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبى الحق» فيكون ماذا ؟؟

يكون أن الإسرائيلى يحرم هذه الصلاة فى بيعته لأنه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد - وأن المسيحى لا يدعوا الله به فى كنيسته لأنه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الإسلامية ، ولأنه يدين بربوبية المسيح لا برسالته فحسب وأن المسلم يصلى به وحده فكأنه لم يشر فيه إلى دين غير دينه ، وأن الدعاء القومى لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو أن طاهيا صناعته تجهيز الموائد قيل له أن ثلاثة من المدعوين فى الدار ليس يشتهى أحدهم طعام الآخر ، فعمل على أطعامهم جميعا بمزج أطعمتهم كلها فى صحفة واحدة لطرد من فوره فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهاة ويغرق فى غفلة الذهن حتى أحسبه أحيانا يتعمد الأمعان فيها ويطرقها من الباب الذى يفضى به إلى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد أن خطر له أن يجمع شفاعات الأديان أجمع كى تكون شفاعة لكل دين ، عمد إلى لصق الأنبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لا يناسب هذا المقام ، والذى لو كان هو وصفه الفذ لا سواه لوجب السكون عنه هنا . وصفه «بالهارب من الرق» فهل يدرى شاعر مصر من رق من هرب موسى ؟؟ أنه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد فى خفراء الريف كياسة تمنعهم أن يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب . أو يتوسلوا إلى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية فلا هو فى الشعر ولا فى النثر شاعر قومى موفق العبارة : وقد قرأناهما لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطأه فى النشيد أخف وأهون ، من حيث أن الأناشيد لا يصلى بها فى المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد أننا لا نرى معنى لزج الأديان فى الأناشيد الوطنية ، فقد كان يكون أدل على الوفاق آن لا نجعل وفاق الأديان مباهاة ومأثرة ، لأن المرء يباهى بالشئ النادر أو غير المنتظر وهذه الأمم المتحضرة والمتبدية ألبس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟؟ أتراها لا تحب أن يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا أننا لا نقصد إلى الافاضة فى نقد النشيد ، فكنا نقارنه بما نعلمه من الأناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما وقد أخذنا من مساوئه ما أخذنا فليس يسعنا أن نهمل مأخذا سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين أحدى مقطوعاته وهى هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا

فلما آل للتاريخ ذخرا

نشأنا نشأة فى المجد أخرى   إلخ إلخ

ويقولون أن التنوين لابد أن يسقط فى الانشاد فيخلفه المد وترجيع

الصوت فإذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة «فخرا» ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد فى موقفه والملحن فى صنعته .

نقول : هذا هو النشيد الذى «يبقى لحركة هذه الأمة شعارا ، ويتخذ للحواديث الوطنية على وجه الزمان منارا» كما تقول اللجنة - نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشيد الثانى ومن اجتراء اللجنة على تقديمهما معا إلى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رأيهم. ولا أخفى عن القارئ أننى ما كنت أظن فى جمهور قراء الأدب استقلالا يقاوم تآمر المحكمين والصحافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة ونزوعا إلى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشيدين المنشورين ، وفى هذا الاستقلال أمل نغتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومـــى

رأينا أن ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقى ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذى يخشـاه شوقى من التفات الأذهان إلى غيره . فان صاحب النشـيد المنشور هنا شـاب لم يظهر بعد شـيئا من شعـره للقراء وشوقى يملأ طبـاق الأرض باسمـه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفـرق بين النشيدين لا يخـفى على أحد . وقـد أتصل بنا أنه كان ثالث الأناشيد التى اختـارتها اللجنة فإذا حسبنا للمحاباة حـسابها جاز أن نقول أنهـا حكمت بتفـصيله على نشيـد (كبـير الشعـراء) ويرى القارئ التفاوت بـين النشيدين حتى فى الخـصلة التى اشتركا فـيها فان مـخاطبة الشعب هنا أشـبه بمناجـاة النفس وهى فى نشيد شـوقى مخـاطبة أجنبى معتزل للشعب الذى يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بنى الـنيل وأحـفـاد الألى ... أطلعـوا الفجـر لتاريخ قـديم
رفعوا الأهرام والعالم لايبتنى ... الا خـصـاصـا من هشـيم
أذكـروا أن ثرى هذا البـلد ... من تجـاليد الجـدود العظمـاء
لا تطئـها أرجل العـادى الألد ... ويكم أبناءهـم بعض الدمـاء
تربهـا التبر المـصفى المنتقـد ... لا الذى يقتنى الشحاح الأدنياء

فامنعوا كنزكم أن يبذلا أو تعيشوا عمركم عيش عديم
لن تروا فى الأرض عنه بدلا ما لكم كنز سوى هذا الأديم

*

اذكروا أن عليكم واجبا لبنينا فى بطون الأعصر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا فهو حق الوارث المنتظر
نتقاضى الأرث عصرا ذاهبا فلنصنه للعصور الأخر
سنؤديه إليهم أكملا لم يغيره زمان أو خصيم
فحمى مصر تحاماه البلى وبنوها خير من يحمى الحريم

*

أذكروا حاضركم كيف يقام ليس يغنينا تليد القدماء
ما التماثيل المهيبات الجسام وأبو الهول رهين الصحراء !
ما المسلات على باب الرجام والنواويس وفيها المومياء !
ما عظيم تالد من العلا فى ثنايا حاضر غير عظيم !
فاجعلوا عهد العلا متصلا كانساق الدر فى العقد النظيم

*

اذكروا مهما بلغتم سؤددا انكم لم تبلغوا أوج الكمال
ابعدوا فوق المنال المقصدا فبنو الشمس لهم أقصى المنال

كم عبدنا قرصها المتقدا فاتقدنا فى حماس ونضال
نبتنى الهيكل يتلو الهيكلا خالدا فى ساحة الرمل مقيم
وسيبقى موطن الشمس إلى يوم لا يبقى لها قرص ضريم

*

اذكروا أن التفانى والغلاب فى سبيل المثال الأعلى البعيد
نفثا فيكم وأنتم من تراب شعلة غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب وتصفى النفس من رجس الوجود
فاضرموا فى النفس هذى الشعلا أضرموها تكفلوا الفوز العميم
مثلما أضرمت النار على مذبح الرب بمحراب كريم

*

أذكروا ذلك وامضوا قدما لا تكن واجهتنا غير الامام
تزدجينا دقة القلب كما يقرع الطبل لجرار لهام
فنسوغ الموت ذودا للحمى ونذيل العمر سعيا واعتزام
فبحق نحن أحفاد الألى اطلعوا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الأهرام والعالم لايتنى الا خصاصا من هشيم

عبد الرحمن صدقى

صنم الألاعيب (١)

شكرى صنى ولا كـالأصنام . ألقت به يد الـقدر العـابثـة فى ركن خـرب على سـاحل اليم - صنم تتـمـثل فيـه سـخـرة الله المرة وتهكم «ارستـفانيز السمـاء» مبدع الكائنات المضـحكة ورازقها القـدرة على جعل مـصابهـا فكاهة الناس وسلوانهـم . و - لم - لا يخلق الله والمضـحكات وقد آتى النفـوس الأحساس بها وأشعـرها الحاجة إليهـا ؟؟ ولم يلتزم فى الإنسان مالا يتوخى فى سواه من وزن واحد وقافية مطردة ؟؟

هنالك إذا على ساحل البـحر شاءت الفكاهة الالهيـة أن ترمى بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبعث على تدبـر القدرتين : هنا ثبج مزيد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحيـاة متجددة وأواذى متوثبة متولدة - وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة باردة جامدة . لا تمتد يدها إلى الثمار تهـدلت بها غذبات الأشجار ، ولا يملأ صـدرها حسن الآصال وروعة الأسحار . ولا يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تتفتح عن آنق الأزهار ، أو الغمائم ترسم فى صفحـة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة فى مستهل الربع تكاد العين «ترى» ذيوعـها وانتشارها بل «وثبها» من شجرة إلى شجرة ومن عود إلى فنن حـتى تعود الحقول إلى آخر مدى

البصر بحرا مائجا من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر فى الصباح البليل وقد أثقلت أكمامه الانداء فتساندت رؤوسها كأن سربا من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .

كلا ليس فى كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك هذا الصنم لأن باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس بنفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء إلا أن تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا أغنيا عنه من جمود طبعه شيئا وأن كان وهو ملقى بين أنقاض حياته يتوهم أنه ملهب الموج بسياطه ومدير الأفلاك بتدبيره وحكمته . يقول كلما أعجبه شكله أو حاله أو آثاره نبذه وأهماله «أنا اله الشعر» فتلطمه الريح وتدحرج ثقله على افريز البحر وترميه الأمواج برش من سخرها وتسك أنقابه برعد من ضحكها فما أجله من اله يتضاحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر إذا كانوا أسلم فطرة من أن يكترثوا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين وإذا تركوه غارقا فى طوفان من الأوحال النفسية مدفونا فى قبر من بكمه العجيب . وأى بكم أعظم مما أصيب به هذا المنكود الذى لا يكفيه أن يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبيا فنيا ورسولا بدين هداية فى الأدب ؟

وأنت أيها القارئ قد تعلم أن سر النجاح فى الأدب هو علو اللسان وحسن البلاغ وقوة الأداء وأن على من يريد أن يشرح دينا جديدا

«لأطفال» هذا العــالم أو أن يحدثهم بما أحب أسلافـهم فى سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحـبوه لو عـرفوه أن يذكر أنهم لـم يتعلقوا بـه بعد ولا استطعـموه فاسمـرأوه وأنه لكى يغريهم به ينبغى له أن يتـوخى القوة فى العبـارة عمـا يريد فان الناس خـليقون أن لا يـؤمنوا إلا بمن عمـر صدره الإيمان .

وقلما ظهر كـاتب أو شاعر الا بالأداء وكثيرا مـا يمتاز بعض الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدر على أجـادة العبارة عن آراء غيـرهم كأبى اسحاق الصابئ كـاتب الملوك والأمراء وأن كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحـاب العقول الكـبيرة الذين تكون آراؤهم بمثـابة محـور انقلاب فى تاريخ العقل الإنسـانى والذين يستطيعون أن يسـتغنوا إلى حد مـا عما لا مسمح لـلأديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتـابة عن مجال التفكيـر البارد ودنوها من مـيدان الذهن المشبـوب والعواطف الذكـية تكون الحـاجة إلى ضرورة فن الأسلوب .

ولعل هذا أكبر الأسـباب التى أفضت إلى خمـول شكرى وفشله فى كل ما عـالجه من فنون الأدب لأنه لا أسلوب له إذا كان يقلد كل شـاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء أن يجيل نظره فى كلامه ليدرك ذلك أن كان على شئ من الاطلاع فإذا لم يكن فهو لا يعييه أن يرى أن يستـعمل اللغـة جزافـا ويكيل «توافيق وتبـاديل» كمـا يقول الرياضيـون – من الكلام غيـر واضح ولا مؤديه معنى بعـينه ويسطر على

الطرس أصداء متقطعة لأصوات مألوفة لا رموزا منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك فى موضعه من هذا النقد .

ويخيل الينا أن شكرى على كثرة الشكوى فى شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمى للأشعار مقتدرا (؟) والقوم فى غفلة عنى وعن شأنى

هذى المعانى تناجيهم فما لهم لا ينصتون بافهام واذهان ؟

وتعزيه بأن الزمان سينصفه وبديل له من خصومه وتظاهره بالاطمئنان إلى حكم الأيام فى قوله :

ارمى بشعرى فى حلق الزمان ولا أبيت منه على هم وبلبال

مجاراة للمتنبى وتقليدا له فى قوله :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

نقول يخيل إلينا أن شكرى لو شاء لفطن إلى سر هذا الخمل وعلة ذلك الاهمال ولعرف أن داءه كامن فيه وأن الناس لا ذنب لهم فقد بحثوا فى شعره على شئ جليل يروع أو حسن يلذ ويمتع أو مستظرف يلهى ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة فلم يجدوا عنده غناءهم وألفوه يريد أن يجعل نفسه هزؤة السخفاء وضحكة الفارغى القلب والعقل جميعا . ولقد كان هينى الشاعر الألمانى الجليل يسخر من نفسه ولكنه

كان بذلك يسخر بالانسانية كلها ممثلة فى شخصه ولا يسع كل قارئ إلا أن يحس أنه أصاب موضع الداء . أما شكرى الذى أراد أن يقلد هينى والذى زعم أن العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول :

وأن «أدرج» فى قبرى   قتيل الحب واليأس
فمن يصدح بالشعر   ومن يسخر بالناس

هذا الساخر العظيم والصيدح الغريد والرسول الجليل لا يطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله إلى سمو قلق وانما غاية ما يرجو فى حياته أن يفوز به على قدر ما استطعنا أن نستوضح غرضه من ايماءاته الخرساء - وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهدأ ثورته إذا بلغه هو أن «تمر به الحسان فترتضيه» !! هذا هو دينه الذى يدعو الناس إلى عبادته ولا ينفك يشكوهم إلى الزمان ويشتمهم ويرميهم بالغباء لأنهم لا يستمعون إليه . أليس هو القائل فى بعض هرائه إذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه:

كفانى من نبيه الذكر أنى   تمر بى الحسان فترتضينى

ولا أدرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز فيه أنه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه فى معرض تمر به فيه وتجسسه بعيونها وأكفها كما يفعل الصبيان باللعب والصور ؟ وما ذنب نصف الناس على الأقل إذا كانت هماتهم ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة .

وعلى أنه عجز عن ايضاح هذا الغرض الضئيل إذ من الذى يستطيع أن يفهم شيئا من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج أن يقول فى نفس القصيدة التى أنزل فيها دينه على الناس وأطلقها من قيود القافية - والوزن أحيانا - لكيلا يعوقه عن التحدر شيئا معاتبا الغرام :

انقصينا ونحن مقربونا　　　من التبيان والأدب الغزير

ولعمرى ما عدا الواقع فى قوله أنه مقرب من البنيان والأدب ولكن التقرب منهما شئ وورود شرعتهما شئ آخر ، وهل بل طرف لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شئ يعوق الطماح　　　فيخطى الأجل ويصمى الأقلا

ولو سئل هو نفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب القول أو من يقول فى صفة المشنوق :

ضاقت الأرض عن مآثمه فاعـ　　　ـتاض عنها برقة الملحود

كأنما حسب المرزوء فى عقله - أن كل ما فهمناه من البيت هو المقصود - أن المشنوق - سيظل معلقا فى الفضاء إلى الأبد أو أن الأرض تضيق عن شئ من المآثم أو المحامد أو أنها هى التى لفظته واعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على أن شكرى متكلف لا مطبوع وأن ما يزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد فى الشعر باطل أنه هو نفسه قال ينعى على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناحيهم .

«وإذا صلب أحد الأمـراء قالوا أن قائليـه اجلوه فلم يرضوا له القـبر وينشدون أبيات الأنبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم عـلاك من بعـد المـمـات
أصاروا الجو قبرك واسـتعاضوا من الأكـفان ثوب السـافيـات

ويقولون انـظر إلى مهارة الشـاعر فى قلب الحـقائق واظهـار الذميم مظهر الحسن . . وليس أدل على جـهل وظيفة الشاعر فى قـرنهم الشعر إلى الكذب وليس الشعر كـذبا بل هو منظار الحقائق ومفسـر لها وليست حلاوة الشـعر فى قلب الحقـائق بل فى اقامة الحـقائق المقلوبة ووضع كل واحدة منها فى مكانها إلخ .

فما أحلى هذا الكلام وأصدقه وما أبعد قائله عن العمل به وأدناه إلى المتأخرين الذين مسـخوا الشعر «حتى صار» كما يقـول «كله عبثا لا طائل تحـته» أو مـا جدره أن يكف عن دعـواه أنه من رجال المذهب الجـديد فى الشعر وهو لا يقلد الا السـخفاء من القدماء باعترافـه . أترى هذا المفتون يحسب أنه يستطيع أن يخدع الناس بهذه النظريات التى ينقلها ولا يفهمها إذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما كان شعره من النوع الذى ينعاه على سواه ويعيبـهم به . أم ظن أنه يكفى أن يلوك المرء جملا كالبـبغاء ليكون فى نظر الناس حديثا سائرا مع الزمن مـؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر أن هذا هو الذى يعتقده شكرى فينا تراه يقول فى مـقدمات ديوانه «أن الشاعر الكبير

(مثله بالبداهة) يخلق الجيل الذى يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له فى بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

يبيت الندى فوق الزهور مرقرقا كما انبعث الطل الرقيق ليقطرا

أو قوله فى فلسفة «تزاوج النفوس» :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما ومهرها الحب لا يغلو لها المهر
من لى بنفس ارى نفسى بها مزجت كما تمازج فى ودیانها الغدر
والنفس فى عيشها شتى منافذها منها القلوب ومنها السمع والبصر

(المقصود هو البيت الأخير) فأى جيل يريد هذا المائق أن يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السير كما ينطقها هو) أما كفى أن فى الدنيا سخيفا مثله حتى يطلب أن يوجد من أمثاله جيل برمته ؟ وأى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ وأى خطب يكون أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !

وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد إلى النقد التفصيلى أن نورد للقراء مثالا لشعر السخر الذى يباهى به قال:

ناصر صروف الدهر مستقبلا فداله لو جزته أقرع
فجز من لمته خصلة لعلها من خلفه ترفع

فـالـدهر أن أقـبـلت ذو لمة | لكنـه من خلفـهـا أقـرع
مطلعـه مـثل طلوع المنى | وحـسـرة مـا خلف المطلع
ولا ترم بالـدم صـفـعـا له | فـانما يصلـح إذ يصـفع
قـراعـه مـثل قـراع الظبى | وانما يـقـرع إذ يقـرع
فـاطل قـفـاه بمداد لـعـ | ـسل اللون من روقـته يخـدع
وغض عـنه نظرا واعـيـا | فـانما يعـديك مـا يطبع
وأن جـرى في الدم كـره له | فخير مـا يجدى لك المبـضع
حـجامة لا شك فـي نفعـهـا | وقـد يضـيـر المرء مـا ينفع
ولا تعف صـحـبـتـه انه | بالرغـم من صلعـتـه أروع
واحن له الرأس لـكى لا ترى | فـانـهـا من خـلفـه تـلمع

ونحن أنما نمثل لبكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة أن نحتاج إلى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التـقريب لان له أبياتا مبعثرة فى أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنمـا معبودا لا منبـوذا كما هو الآن . ومـا بالعجب أن يكون له بضعة أبيات مفهومة فـانك لو جلست ساعة إلى مجنون ابله لجرى لسانه بجملة أو جمل تلمح فيها أثر العـقل . وأن كان لم يفكر فى مبلغها من الصواب وحظها من السـداد . وللعقل الذاهل المضطرب انتباهات فـجائية لعلها من أقوى الدلائل على الرزء فيـه وقد جمع صاحبنا إلى البكم الذى

مثلنا له ضعفا فى الذهن واضطرابا فى جهاز التفكير لم تنفع فى معالجتهما كثرة القراءة والاطلاع على خير ما أنتجت العقول . وقد يعلم القارئ أو لا يعلم أن الاطلاع قلما يجدى إذا كان الاستعداد مفقودا وكان الذهن غير مستو أو صالح «لهضم» ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله إلى فكرة مكونة من امتزاج الجديد بالموجود - كالمعدة الضعيفة لا ينفعها أن تزحمها بألوان الطعام وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول من المعدة إلى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه حيث يقول « ويتماز الشاعر العبقرى (يعنى نفسه أيضا) بذلك الشره العقلى الذى يجعله راغبا فى أن يفكر كل فكر» ولكن ما به ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس إلا بالحاجة إلى قراءة كل كتاب لا إلى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكرى ولعله من أسباب ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريت وقصص السحرة والمردة والجان لما وقع فى نفسه من أن هذا حقيق أن يقوى خياله ويجعل له أجنحة يحلق بها فى سماء الشعر وفاته هو وأمثاله أن الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحقيقة وأن كل كلام ليس مصدره صحة الإدراك وصدق النظر فى استشفاف العلاقات لا يكون الا هراء لا محل له فى الأدب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان العواطف وضعف الروح تعيش فى عالم الشعر ؟

وليس فى الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفى العمق. لأن العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقا كما يشاء ولكن مع

الوضوح والجلاء إذ أيهما أحوج إلى النور يراق عليه ويكشف عنه ما تلمسه اليد وهى تمتد وتعثر به الرجل وهى تخطو أم ما يغوص عليه المرء فى أغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل أما على العجز على الاداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة فى ذهن صاحبها .

على أنه من أفحش الخطأ وأضره بالاستعداد وأشده افسادا للفطرة أن يتكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة النسور اذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمال فان العقل الصغير إذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل إلى غايته من طريقه ولا يحس الحاجة إلى قوة العقل الكبير .

وقد ركب شكرى هذا الجهل فتكلف ما لا يحسن واراد أن يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الأول وظن أن الاجتهاد يغنى غناء الاستعداد فلا هو بلغ أية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقى على خلقه الوادع وقناعته بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال ألبسه اياها .

ولما كان السقم فى الكلام مرده السقم فى الذهن فسنبدأ نقدنا بالدليل الضمنى المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب ببيان الفساد الذى اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصى سرقاته واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعا .

*

لا نقـول أن شكرى مـجنون فنحن أرفق به من أن نصـدمـه بذلك وأعرف بحالة وبأمراض العقل من أن نهيجه إلى الخبال بالايحاء والتذكير والالحاح ولكننا نقول أن ذهنه متـجه أبدا إلى هذا الخاطر - خاطر الجنون - وأن فكرته مائلة لجو حياته والخوف منه منغص عليه كل لذاته وعلالاته وأنه حتى فى طعامه يتوخى ما يظن أو يقال له أنه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كـالسمك والبيض والمخ وأشباه هذه الألوان - وأن ذكر هذا اللفظ على مسمع منه يدخل فى روعـه أنه هو المعنى به فيمتقع - ولا يخفى أن اتجـاه الذهن له دلالة خاصة وهو قـرينة قلما تخطئ إذ لماذا ينصرف المرء إلى خـاطر بعينه لا يعدوه فى روحاته وغـدواته وفى طعامه وشرابه ويقظـته ومنامه وفى أقـواله وكتـاباته من شعر ونـثر - أو منظوم ومنثور علـى الأصح - ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخـذ به وحده فى البت بأن المرء صائر لا محالة إلى آخر الطريق . وأكثر أهل الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شئ كثير من الشذوذ والجنون والعبقرية بسبيل وهما فى الحقيقـة صنوان وحالتا العقل فيهـما متماثلتان ، فالعـبقرى ذهنه مكظوظ بالآراء حافـل بالذكريات يتـمخض أبدا عن إدراك عـلاقات بين الحـقائق والأصوات والألوان لا تفطن إليـها عقـول الأوساط . والمجنون فى ذلك نده وقريعـه وكلاهمـا ترجع مميزات تفكيـره وعلمه إلى فـرط النشاط فى بعض نواحى المخ أوفتـورها أوقابلينها للتـنبيه والتهـيج وكثيـرا ما تنقلب العبـقرية جنونا والجنون عـبقرية . وقـد فطن الأقدمون إلى هذه العـلاقة

ولمحوها وأن كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير أن جنون العبقرية منتج يخرج - كما يقول أفلاطون - الشعراء والمخترعين والأنبياء أما الجنون المألوف فهذا عقيم نعيذ صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغى أن يتوهم أحد أن العبقرية هى الجنون فليس أفحش من هذا الخطأ ولا أقتل من ذلك الظن لأن العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادى وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب فى التوازن العقلى والعصبى .

قلنا أن ذهن شكرى متجه إلى هذا المعنى وقد يكون هذا غير راجع إلى علة أصيلة فيه إلى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل عليها ويرهقها به كأن يكتب جزءا من ديوانه فى شهر واحد حتى كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه أن يتمه فى وقت محدود . وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال أن حدثته نفسه باحراقه بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى أن يخب به المرض ويوجف بعقله الداء فلا يستطيع أن يصدح بالشعر ويسخر بالناس » !! وماذا أجناه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكأنما هو حجر وقع فى بئر فلا هو «صدح» ولو فى حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء عقله .

وإلى القراء أمثلة لذلك . قال من قصيدة «الحب والموت» .

حنينى إلى وجه الحبيب جنون   جنون يهيج القلب وهو شجون

وقال من قصيدة الدفين الحى :

فهاج هياج الشر فى الأسر طرفة وأدركه حتى الممات جنون

وقال من قصيدة غاية الحب :

وإن كنت عندى جئت بالعقل والحجى وإن لم تجئ فالقلب مجنون ثائر
ولكن وجدى منك جن جنونه فها أنا من حبى بحسنك هاتر

وقال فى «طبع الإنسان» :

ان بالمرء جنونا جاعلا نوبة للشر فيه تحتدم
لا ينال البرء من نوبته أو يذيع الشر منه والالم

وقال من «مرآة الضمائر» وكان له فى البيت معدى عن لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى ملامح لا تخفى تناديك بالجهر

إذ من الذى يستطيع أن يدعى أن فى كل وجه ملامح من الجنون ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرئ غيره سكران ؟ وقال من قصيدة «سلوان الجنون» :

عسى أن تجن النفس فيكم جنونها فلا ذكرة تصبى ولا فكر يخطر
فان جنون النفس سعد وراحة وان عناء الحب ذاك التذكر
فانساك حتى لست أدرى أعائش على الأرض نسعى أم دفين معفر
فان يبلغ الحب الجنون فلا تلم أما كل مجنون على الهجر يعذر

وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان فى وسعه أن يطلب الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب أن المجانين سعداء لا يكرب أحد منهم خاطر ملح أو وهم جاثم ولو أنه سأل طبيبه لعرف منه أن بعض المجانين يعذبون أنفسهم بما يتخيلون وأنهم كثيرا ما يخلقون لأنفسهم جحيما من الأوهام يصلونها ، على أنا لا ندرى من أين جاءه ولماذا ظن أن حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون إذا بلغ الحب ذاك ؟ ولكنه معذور على هذه السفسطه على كل حال والناس كذلك معذورون إذا لم يقرءوا نظمه .

وقال من قصيدة «صنم الملاحة» :

بلغ الغـــــرام إلى الجنون فـــــلا عـــتـــاب ولا ندم

وقال من قصيدة «الحسود»

وأدركـه مس الجنون وأظلمت عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة «بالله ما تفعل لو بلغوك» :

بالله مـــا تفـعـل لو بلـغـوك أنى عـــرتنى جنة مـن هواك
وكـيـف لا يلهب لبى والهـوى إذا مـضت لى أشـهـر لا أراك

ومن قصيدة «أنا مجنون بحبك» :

أنا مـــجنون بحـــبك فـــأزل غلة صـــبك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنون خابل　　يزدرى المرء له وقع التهم
أنما الحب جنون وجوى　　ورجاء واجترام وندم

وقد ترقى فى هذا المعنى من القول بأنه هو مجنون إلى نسبة الجنون إلى الناس كلهم إلى الحياة نفسها والدهر أيضا . قال من قصيدة «جنون الحياة» :

لا ترع فالدهر مجنون　　كل حى فيه مغبون
جن من حول ومقدرة　　وكذا ذو الحول مجنون
فتضاحك ثم قل أبدا　　أن هذا الدهر مجنون
دهرنا دار المجانين　　كل حى فيه مسجون

ومن قصيدة «بعد الحس» :

وكنت أعد الحسن فيك فطانة　　وأن جنونى فى هواك صواب

ومن قصيدة «وحى الشعر» :

كجنون النعيم والبؤس فيهم　　وهى تبدو لغيرهم كذكاء

وفسر البيت بقوله «أى عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والآلام » فأنا أشهد الله والناس أنى

لا أحس هذا الجنون . ولكن أحسبه سينكر على الشاعرية لهذا على الأقل . وقال من قصيدة «مشترى الأحلام» :

لو يستحيل المستحيل على الورى وأنال من أحلامه ما أطلب
لجننت جنة قادر مستحكم يرضى على هذا الآنام ويغضب

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من قصيدة صوت النذير :

أم ضحكة الرجل المجنون من حزن لشد ما نال منك البؤس يا رجل
حتام تنكر حقا غير مشتبه لا يكره الحق إلا من به دخل

وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه أياه راجعا إلى أى سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وأن بقلبى من جفائك جنة فان رام يوما قتلكم ما تأثما
فأسقى جنونى من دمائك جرعة وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

فيظهر أن حبيبه عرف ذلك منه وأدرك أن جنونه قد يدفعه إلى الاجرام فتحرى البعد عنه فما أشقاه ! جنونه يغرى حبيبه بالهجر والهجر يزيد فى جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة وإلى أى خال ينتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب إلا جزءا من ديوانه لا يبلغ عدد صفحاته

السبعين وناهيك بما فى الأجزاء الأخرى . ولم ننقل من شعره إلا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه وإلا فإن هناك أبياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وأن خلت من اللفظ كقوله :

أمشى (أحدث نفسى) عن محاستكم   حتى يخال حديثى لغو نشوان
نشوان ليس له عقل فيسكته   الحب خمرى وليس الخمر من شانى

فإذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقوله وهو أدهى :

واهتف طول الليل باسمك جاهدا   وهاجس هذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا فى الهتاف ويعترف بأن هذا داء ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب رشد الناس) عن أنفسهم   ضاع منهم تحت أشلاء الرمم

.... الخ الخ

وليس الأمر بمقصور على جولان هذا الخاطر فى نفسه وملازمته أياه أبدا وعلى الصياح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب فى الطريق كالسكارى والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وأن الحياة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شئ جنونا مجنا وأن الزمن دار المجانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :

فى كل دار من جواه مريض   وكل قلب فيه جرح رغيب

كأنما يريد أن يعتذر لنشـ ه من استهتاره وما عرفنا أن الأمر كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الأمر بمقصور على ذلك فإن شكرى على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو - تساهلا في التعبير - مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا أنه يسمع أصواتا أو يرى أشباحا تختلف وضوحا واستبهاما حسب درجة الحالة فإذا أصاب العين رأت مالا وجود له فى الأذن سمعت ما لم يصدر فعلا من الأصوات وقد لا يصحبه أى اضطراب محسوس فى القوى المفكرة وأن كان لاشك مع ذلك فى أنه اضطراب محلى فى المخ إذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب بعض حالات الجنون «هذيان الاذن» أى اعتقاد المصاب أنه سمع أصواتا وأن أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب فى برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسير فى الطرقات وأشباح الآدميين والحيوان أيضا وكان يسمع أرواحا تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأل بعضها عن بعض وقد عولج من ذلك بوضع «الدود» على عنقه إذ كان سبب كثرة الدم الصاعد إلى بعض نواحى المخ .

وقد قال شكرى - اعاذه الله من شر ذلك - فى الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

أو كنور البدر فضيا له　　　وتر فى القلب فضى النغم

«ما رأيت القمر إلا أحسست كأن نواقيس تطن فى أذنى . وأن ألذ الأنغام رنة الفضة المجوفة » أهـ .

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهى قاطعة فى أنه في كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى أذنه صوت نواقيس فضية ولنا أن نلاحظ أمورا :

أولها : أن البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لأن معناه مفهوم بدونه .

وثانيها : أن ما (يطن) فى أذنه «كلما» رأى ضوء القمر ليس له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض - بتقريره أن الذ الأنغام رنة الفضة المجوفة خصوصا وأن رنتها «ليست» ألذ «الأنغام» وأن كانت «أخلص» الأصوات وأصفاها والفرق كبير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغم . نعم أن الصفاء من عوامل الحلاوة فى النغم ولكن خلوص الرنة من الأكدار - مع التسامح فى عد الرنة نغمة - لا يمكن أن يعد «ألذ» الأنغام .

وثالثها : أنه كلما رأى «ضوء القمر» طن فى أذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخاصة وأهل الاطلاع والملاحظة أن «ضوء القمر» مقرون فى أذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهذيان كما يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها أنه إن كان صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء فى الذهاب إلي أنها مريبة وأن كان

قد كذب على نفسه فلنا أن نتساءل لماذا يعـزو إليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب فى طائفة من الأعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول فى هذا الباب ولكنا قد أطلنا وأن كان التحليل ممتعا مـغريا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزئ بملاحظة أخرى وهى أن لشكرى كتابين غير دواوينه أحدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يسـتحق الذكر إلا أنه وصفه بأنه «أحلام مجنون» والآخر رواية اسمها «الحلاق المجنون» وهى كذلك تافـهة لا قيمة لها وقد احتذى فـيها كاتبا روسيـا فى رواية أسمها « هل كان مـجنونا» وموضوع قصة شكرى أن حلاقا ذبح زبونا له لأن رأس الزبون تشبه رأس الخروف فأغراه هـذا الشبه بذبحه بموسـاه وهى فى الحقيقـة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا أن نبهنا شكرى إلى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى وأشرنـا عليه بالانصراف عن كل تأليف أو نظم ليفوز بالراحة اللازمـة له أولا ولأن جهوده عقيـمة وتعبه ضـائع ثانيا ولم تكن أمـامنا فى ذلك الوقت كل هذه الـشواهد فلـعله الآن وقـد رأى كثـرتهـا وتوافرها - وهى كـثرة مروعة - يرجع إلى رأينا ويرتضى مـا أرتضينا له وما هو خليق أن يحمده النـاس منه فلا يحاول أن يغالب مشيئـة الطبيعة التى لا تخلق الآبكم إلا وهـى قادرة على الزامـه البكم طول حـيـاته ولو «جن» تحرقا على النطق .

الجـــزء الثاني

أدب الضعف

الأدعياء فـي كل بلد كثيرون وفي كل قطر كـالذباب يعيشـون عيالا على الأدب وحميلة على أهله وذويه ولكنهم فيـما نعرف لا يعدون الطنين في غير هذا القطر ولا يعدو جمهـور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ أحدنا العناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخادمه أو ربة بيته أزيلي هذا وأتي عليه بالمكنسة ثم لا يقولهـا حتى ينسى أمره ويذهل عن خبره . أما في مصر فالحال على خلاف ذلك والأمـر على عكسه ونقيضه . يظهر الدعي فيستولي على الميدان ويخـر الناس له سجدا إلى الأذقان ويباهون به الأمم والأزمان فان سـألتهم في ذلك وعلته وماذا بهـرهم منه وكيف كان على حد تقـصر عنه قوى البـشر ومنتهيـا إلى غاية لا يطمح إليهـا حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحـوا أبوابا من التعسف لا تستند إلى أصل ولا يعتمد فيها علـى عقل وظنوا بك الفند وجُروا في أوهامهم إلى آخر الآمد كأنما التوق إلى أن تقر الأمور قـرارها وتأخذ الأشياء اقدارها شئ ليس في سـوس العـقل ولا في طبـاع النفس . وليس الأمـر بالهين الذى تتـأتى مداواته ويسـتيسـر علاج ما يعـرض في الآراء منه فإن الداء عيـاء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومـعظم الآفة والذى صار حجازا بين القوم وبين التـأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مـرض في عقـولهم شديد

الخفاء أورثهم أياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون أن يصغوا لما يقال لهم ولا أن يفتحوا للذى تبين أعينهم أو يأخذوا لأنفسهم بالتى هى أملأ لايديهم وأعود بالحظ عليهم حتى صاروا من كل أمر فى عمياء قصاراهم أن يكرروا ألفاظا لا يعرفون لشئ منها تفسيرا ويرددوا ضروب كلام أن سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبيينا . وما لهؤلاء نكتب ولا من أجلهم نتكلف أن نكوى عرق الباطل ونخرس ألسنة الكذب والتدجيل وننقض بناء المنكرات والشناعات التى أقامها نفر من الأدعياء نشأوا فى غفلة الزمن فإن من المستحيل أن نرجع بهم إلى سن التفكير والبحث والتقصى وحب الاستطلاع ولكنا نكتب ونشرح وننصب الميزان لمن يحس أنه رزق عينيه ليفتحهما على الأشياء ويجيلهما فيها لا ليغمضهما دونها وأوتى العقل ليتصرف به فى الأمور ويتبين النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك حسه ولا يغالط فى الحقائق نفسه ولا يجب أن يستسقى إلا من المصب أو يأخذ إلا من المعدن مؤثرا الغبينة والهزيمة والفشل على احالة الأشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن طباعها وقلب الفطر إلى أضدادها - لهؤلاء الذين هم معقد الأمل ومناط الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى تكون أضوأ لها وأكشف عنها صابرين على طول تأملهم مغتبطين بعدم قناعتهم الا بالاقتناع . إذا ما خيير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة مستبين ؟؟

وليس فى مصر شئ عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن الجرى مع الأوهام والذهاب إلى أشنع الشناعات وأسوأ المنكرات، ما عرض لهم فى الأدب حتى صاروا إذا عمد عامد منهم إلى الألفاظ وجعل يتبع بعضها بعضا من غير أن يتوخى فى تنسيقها معنى فقد صنع ما يدعى به كاتبا وشاعرا ومؤلفا يضن الزمان بمثله ويعيى الأمم مكان نده . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج إلى تنبيه أو أن يتجشم أحد منا اقامة الحجة عليه والتدليل مع التبسط فى الإيضاح وتحرى البساطة فى سوق المبادئ وتفصيل الأصول وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة إذا رأونا ندلى بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به إلى الصفة والتبيان وما صار دستورا معهم لهم به عن ايضاح الأصول والبدالة غنيان ؟ أفلا يعذرون إذا شبهوها بالأطفال تتقاذف اللعب وهى تحسبها أدوات الكر والطعان ؟ بل ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب وعمى العيون واعوجاج الأذهان .

ولماذا لا يرون من أعجب العجب ذلك الذى عليه الأدعياء المقلدون فى أمر الأدب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الأدعياء لا تجد فى الأمر الأعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى الذى تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغربيين إذا أطلعوا على هذه المنكرات الشنيعة التى تتمخض عنها الطبائع الممسوخة والأذهان المنتكسة ؟ أن الجيد فى لغة جيد فى سواها والأدب شئ لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان

لأن مرده إلى أصول الحياة العامة لا إلى المظاهر والأحوال الخاصة العارضة . وكذلك الغث غث فى كل لغة فى أى قالب صببته وسبكته وبأى لسان نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الآمال فى صلاح الحال وهاكم صنما آخر من معبودات الضئال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفوطى

عنى السيد المنفلوطى بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الأول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالى دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنينا هذا الأمر إلا من حيث دلالته على طريقة السيد فى الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وأمثاله على تأثير الألقاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما أرادوا أن يزفوا إلى الناس عرائس أفكارهم أو يشيعوا إلى قبور صدورهم أموات خيالهم . وإذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد أن يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لآثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق وأملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق أن يكون على ظاهر الأمر مقدما على سواه وحريا بأن يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى «بنات» عقله ثم نأتى على ذكر رواياته وقصصه فى أثر هذا وذاك على أننا ربما عطفنا عنان الكلام على الأخيرة قبل الأوان توفية للحقوق وبيانا للفروق وكشفا عن الحال وايقافا للقارئ على مبلغ سعة المجال .

*

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء إلى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة وأربعين عاما من أبوين كريمين كرما يثبته أو أولهما - ولا ندرى أيهما يعنى ولكنه أحدهما على كل حال - ينتهى نسبه إلى الحسين بن على جد كل مسلم ومسلمة ومنافس آدم بكثرة النسل «تفاقم» الذرية . وثانيهما إلى أسرة جوربجى التركية «المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل» .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حظ النقد ان يزيد على هذا فى بيان نسبه إلا أشياء ظاهرة لا تحتاج إلى تدوين ولا تحتمل الايضاح والتبيين كقوله أنه «ولد فى منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر» وأن أسرته هناك «مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل» فإن لقب السيد يدل على ذلك ونسبته تهدى إلى معرفة ما هنالك ولكنا نحسبه خشى أن يضل القارئ ويختلط عليه الأمر فيتوهمه مقذوفا به إلينا من المريخ - والحق أن له العذر فى خوفه هذا إذ ليس فى كتابته ما يدل على أنه مثل أبناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها وأداء لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود إلى ترجمته فنقول وليته إذ عنى بهذه التفاصيل البديهية كان قد ساق إلينا ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير أثر العوامل الوراثية فى تكوين أخلاقه النادرة التى يصفها بأنها «انقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائى صلفا وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف

الأمور والترفع عن مخالطة من لا تعجبه أخلاقه ولا تجمل فى نظره أطواره. وعفة حتى عن مد يده إلى أبويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وأدب وحياء وحلم يظنه الظان عجزا وضعفا فإذا غضب وقليلا ما يفعل فهو الليث قوة وشجاعة وإيمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب باب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان فى أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة ثم ماتت زوجته بعد ذلك فجلس إلى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء سواه وليس أحقر فى نظره من مدح المادحين ولا أحقر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض إليه من الكذب وكثيرا ما كنت اسمعه (!) يقول «لا طلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل أو يعجب برأيى البليد إلى آخر ما لا يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .

ولكننا بتنا لتقصيره فى ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب فى هذه الفضائل وفى كل هذا الأدب الجم الذى جعله - كما يقول - الكاتب الفريد الذى يحافظ على أسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشئونه سواء فى ذلك المعانى المطروقة لكتاب العربية الأولى أو التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها أسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عارية من عواريه .

وليس فى أن يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببدعة ممن هو

كالسيد الشريف المنسب لا يحدث إلا عن نفسه ولا يصدر فيما يكتب عن سوى يومه وأمسه . ولكن ما هذا يكتب الناس عن أنفسهم ويتقدمون إلى قرائهم بتراجمهم ووصف آبائهم . وما للقراء ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما أفدت فى سماجة ما كتبت ولقد قرأنا لجيته شاعر الألمان الضخم كتابا فى تاريخ حياته يقع فى أكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر أنه أورد اسم أبيه حتى ولا فى سياقه الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولقد جعل وكده أن يشرح لقارئه أدوار نموه العقلى وكيف تكونت أخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو ما يعنى قراء التراجم . أما الأجداد والآباء فما دام الكاتب لا ينوى أن يذكر ولا يستطيع أن يعرف عنهم أكثر من الأسماء فخير له وللناس أن يسدل عليهم أستار الخفاء حتى لا يجمع إلى الجهل أو العجز نقيصة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على أنه أن فاتنا هذا الذى كنا نحب أن لا تخلو منه الترجمة ولم نعتض منه إلا ما هو منشوء ثقيل على النفس فإن فيما كتب السيد الشريف الجليل العربى التركى الحسينى الجوربجى المنفلوطى الكفاية فانه أعزه الله لم يألنا كشفا عن آرائه وأخلاقه وفضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخائل صدره وهواجس خاطره ولم يضن على قارئه بوصف أحواله وكيف يكتب وكيف يأكل ويشرف ويلهو ويلعب ولأى شئ يطرب ومم يغضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه فى غنى عما يبدئ فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها من المقالات !!

ويالها من شـجاعـة لا تجعل صاحبها يحـفل التهم أو يعنى نفـسه بالصدق فيما نحلها من الشـيم ! فهل تعرف أيها القارئ من أى ضروب الشجاعة هذه فإن لها لأنواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة الايمان ولا شجاعة يبعثهـا احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا شـجاعة الطيش وانما هى شجاعـة . . الطعام !! نعم والموائد الممدودة والأخـونة المنصوبة . وأنك أيها القارئ إذ تنكـر هذا القول علينا وتمط شفتيك وتـزوى ما بين عينيك لتدل بذلك على أفحش الجهل وأفضـحه بأسرار فعل الطعام . ولكنك إذا ساءلت نفسك ماذا عـسى أن يخشى السيد الشريف الحسـيب النسيب بعد أن يجمع حول مائدته الأسبوعية فـيمن يجمع هؤلاء المتسولة من أصحاب بعض الوريقات القذرة ويملأ لهم بطونهم كنت حقيقا أن تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . أتراك لم تسمع بالمثل العامى القائل «أطعم الفم تستحى العين» ؟ ومـاذا صنع السـيد أكثر مـن الجرى على السنن العامـية فى كل شئ ؟ فى كـتابته وفى مـعاشـرته وفى اتقائه الألسن - وهذا هـو السر - فأعلمه - فى أنك لا تسمع به فى هـذه الوريقات ولا تراها تلهج به مادحة ولا قادحة .

ومن ظريف ما نرويه فى هذا المقام أن السيد سمع بعزمنا على اخراج هذا الكتاب فـجاء يدعونا إلى مائدته وأرسل يلح علينا فى «تشـريفه» فلم ينقذنا من الحـاحه ولم ينجنا من مـوقف الغدر ونكران جمـيل مائدته إلا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض الأحيان ؟

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا فى كتابات المنفلوطى مما يستحق أن يعد من أجله كاتبا وأديبا إلا إذا كان الأدب كله عبثا فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيوخنا المائقين يقول : «أن فى أسلوبه حلاوة» ولو أنه قال «نعومة» لكان أقرب إلى الصواب ولو قال « أنوثة » لأصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الألغاز والأحاجى فلنفسره لفائدة الناشئة أن لم يكن لفائدة ذاك الذى لا نرجو منه خيرا .

قال مهيار :

فيارب قلد دمى مقتلى ... بما نظرت وأعف عن قاتلى
هنيئا لحبك - ذات الوشاح ... دم طل فيه بلا عاقل
وحبى ذكرك حتى لشمـ ... ـت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة - كلام مصقول لين الانحدار تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه إذا نثرته وتأملت ما تحاشاه الشاعر من الألفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد إذا تدبرته لم تشعر أن وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما فى الأمر أن صاحبه أراد القول فى هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان

الشاعر قد أعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ إلى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط فى الرقة يكسب الجمال ويغنى عن الاحساس به فقلب كل شئ وحمل عينه ذنب النظر إلى الحسن ودعا الله أن يبوء المقتول بالقاتل تناهيا فى اللين وذهابا إلى أقصى المدى فى الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا دم مطلول بغير عاقل وإنما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول أنه لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطرى ويكفى لادراك مبلغ السخافة أن تتصور مثل هذا المنظر حادثا واقعا . وأمثال هذا كثير فى غزل المقلدين والعابثين لأنهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا إلى الصقل وضحوا فى سبيله الرجولة والعقل.

ومهيار بعد من الفحول أو هو على آثارهم ماض وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الإدراك للفرق بين مذهب العرب فى الشعر ومذهب الآريين – أو الفرس فقد كانوا لا يعرفون إلا عربا وعجما . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المعدن الصريح إذا ... غش تجار الاشعار ما جلبوا
يشكرها الفرس فى مديحك للمـ ... ـعنى وترضى لسانها العرب

فكأنه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ وأكبارهم شأنه وذهاب غيرهم إلى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى فى حلاوته وعذوبته كقوله :

اذكرونا ذكرنا عهدكمو ... رب ذكرى قربت من نزحا

وقوله :

آه على الرقـــة فى خـــدودها　　　أو أنهـا تسرى إلـى أكبـادها

فإذا كـان مهـيار وهو من علمت يقع فى هذا فـما ظنك بالمتـأخرين والعابثين الذين افتنوا فى العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل للإنسان أنهم كانوا يتبـارون ليروا أيهم أعظم تطليقا للعـقل واتيانا بالمستحـيل ونسيانا لأحكام الحياة . أما الحلاوة فتجدها فى مثل قول الشريف الرضى :

أنت النعـيم لقـلبى والعـذاب له　　　فـمـا أمـرك فى قلبـى وأحـلاك

وقوله من القصيدة عينها :

عندى رسائل شـوق لست أذكرها　　　لولا الرقـيب لقـد بلغـتها فـاك

وليس يمنعك أن تتذوقها من البيت الأول ذكر المرارة فانها هنا أخف ما تكون وليـست كل القصـيدة من هذه الطبقـة ولعل التمـثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربى أجدى وأنفع فى تبيين المراد ولكننا لا نحب أن يفهم أحد أننا قـوم افتتنا بالغرب حتى ذهلنا عن مـحاسن العرب ولا أن يظن بنا الاعلان عن النفس وأن كـان لا غضاضة فى ذلك مـا دمنا ندعو إلى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة إلى ما ترك من التنوع فى الاطراد وإلى احساس الشاعـر باللذاذة والحسن احساسـا هو مزيج من الاعجـاب والطلب . خذ البيت الأول مثلا «أنت النعيم» وتأمل اطراد العـاطفة فى مصراعيه وتوازن

قوتها فى شطريه وكيف أنه مع هذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدمك . ويريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لان العبارة موزونة على قدر الاحساس لا أكثر ولا أقل ولو أنه كان قال «أنت النعيم لقلبى والجحيم له .. فما أمرك .. إلخ» لأحسست التنافر واختلاف القوة فى الشطرين ولما استعذبت منه قوله «فما أمرك إلخ» بعد لفظة الجحيم . وتأمل فى عقب هذا قول المسكين شكرى يصف جميلا ويبالغ فى حسنه :

كأنما صاغكم كيما يحبكمو   يا فتنة الحسن قد جارى الهوى فينا

يعنى الله فى صدر البيت – فانك تحس إذ تنتقل من الشطر الأول إلى الثانى كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء البيت انحدارا مباغتا وكأنك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثانى وانظر تحريه الدقة فى العبارة عن مقصوده تحريا أكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون أقوى الألفاظ وأشدها من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما لم يكن يعجز الشريف عن حشره فى البيت لو كان مثلهم فساد ذوق وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من أخف مراتب الحب وأولها ولا أكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة ومن اشتهائه

التقبيل اشتهاء لا ينبو مع ذلك فى زمام الارادة فالتناسب تام بين أنواع المعانى والاحساسات المتنوعة التى ضمنها البيت - من إعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلة وسلامة الذوق وحسن المعنى فى الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ الا للفم ومراعاة ذلك وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع فقارن قصيدة الشريف الرضى التى يقول فى مطلعها :

يا ليلة السفح الا عدت ثانية   سقى زمانك هطال من الديم

بقصيدة الطغرائى التى احتذاه فيها وترسم مواقع أقدامه وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكنا نجتزئ بذكر البيت من قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطغرائى مجاراة له . يقول الشريف :

قدرت منها بلا رقيب ولا حذر   على الذى نام عن ليلى ولم أنم

فيأخذه الطغرائى ويحرج صاحبيه أن كان لهما وجود :

يا صاحبى أعينانى على كلفى   بمن تناوم عن ليلى ولم أنم

ويقول الشريف يصف ليلته معها :

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا   على الكثيب فضول الربط واللمم
يشى بنا الطيب أحيانا وآونة   يضيئنا البرق مجتازا على أضم

فيسطو عليه الطغرائى ويصوغهما فى أربعة أبيات مرذولة :

بتنا وبات الصبا وهنا يغازلنا   وفرشنا الرمل وشته يد الديم
والليل يكتم سرى والصبا كلف   بنشر ما كاد تطويه يد الظلم
يا نفحة الريح باتت بين أرحلنا   بالجزع تسلك بين العذر واللمم
نهبت طيبا وأغريت الوشاة بنا   يا حبذا أنت لو لم تقتدى بهم

ويقول الشريف :

واكتم الصبح عنها وهى غافلة   حتى تكلم عصفور على علم

فيضعه الطغرائى فى هذا البيت المنحوس :

وغاب عنا غراب البين ليلتنا   فناب عنه عصيفير على علم

ويقول الشريف :

يولع الطل بردينا وقد نسمت   رويحة الفجر بين الضال والسلم

فيمسخه الطغرائى هكذا :

وأذنتنا بقرب الفجر ناشئة   باتت تحرش بين الضال والسلم

ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى   يلفنا الشوق من فرع إلى قدم

فيأبى إلا أن يعف عفته ويجئ بهذا البيت المنثور السخيف :

ورق لى قلبه القاسى ومكننى   مما أريد فلم آثم ولم ألم

ويقول الشريف فى غير هذه القصيدة :

أنت النعـــيم لقـلبى والعـــذاب له　　فـمـــا أمرك فى قلبى وأحـلاك

فلا يرى الطغرائى أن يتركه فى قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى فى الجوى حتى أنست به　　فهـو المرارة يحلو طعـمها بـفمى

فيخلط ويحسب الشريف أن هذا قصد . ويقول الشريف :

ولا استجـد فؤادى فى الزمان هوى　　الا ذكـــرت هوى أيامـنا القـــدم

والذكرى طبـيعية ولـكن فساد ذوق المقلد الطغـرائى يأبى له الوقوف عند حد الطبيعة :

نريد أن أسـتـجـــد الحب بعـدهم　　والحب وقف على أحـبابنا القـدم

إلخ إلخ

وشتان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والأداء وأبيات الطغرائى لا يسيغها المرء إلا بعناء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج إلى جلاء . ولعل القارئ قد رأى مما أودرنا أن الحـلاوة لا تتفق مع العبث والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها .

*

ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة فى كلام المنفلوطى سواء فى ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها وقد أسلفنا أن وصف أسلوبه بالنعومة أقرب إلى الصواب ولكنه ليس كل الصواب لأنه متجاوز ذلك ذاهب إلى أدنى منه وليس أدنى من ذلك إلا الأنوثة وهى أحط وأضر ما يصيب الأدب ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيغونها ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم أياها أن يشجعوه ويغروه بالكد فى ابراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف .

قال المنفلوطى فى مقدمة عبراته :

«الأشقياء فى الدنيا كثير ، وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات علهم يجدون فى بكائى عليهم تعزية وسلوى » .

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق عطفا على المساكين أمثاله . ولو شاء لقال أن الناس جميعا كذلك أن كان يريد أن يذهب إلي هذا المعنى لان كل امرئ طالب محروم . ولكن وظيفة المرء فى الحياة ليست أن يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لان الأصل فى الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهى قائمة على ذلك ولا سبيل إليها بدونه ، بل هى تنتفى إذا امتنع وبطل .

وهذا شئ يعرفه كل احد ويحسه كل حى . وقد فطن إليه الأقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمى على ذلك واثباته فى مظاهره ومن آيات هذه الفطنة - فطنة عميقة مستولية على النفس - أنهم قالوا أن فى الوجود قوتين متنازعتين أبدا وقوة الشر التى تطغى بالليل وتجلل فى الرعد وتقذف بالصواعق وتبتلى بالجدب والمحل والأوباء والارزاء والفناء وما يدخل فى ذلك ويتفرع منه . وقوة الخير التى تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة إلى آخر هذه المعانى وقد رمز الفرس للأولى وللثانية بأرمز .

ومثل هذا واضح فى جميع الأديان وأن تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما أبليس أن فكرت الا أسم آخر لاهرمان والارمز لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ فى خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هذا وفى أوهام العامة التى تعزو الأمراض إلى فعل الشياطين وفى خوف الأطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير فى دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والغاب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ أليس هذا أثرا من الاعتقاد الأول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذى يحسه الأطفال والعامة والذى فطن إليه الأقدمون السذج بغرائزهم وفطرهم السليمة لا يدركه المنفلوطى المسكين الذى يحسب أن ليس له من عمل فى

الدنيا إلا البكاء على الأشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجوالة في جوف الثرى .

وعسى قائل يقول : أن هذا منه فرط حب للانسانية وهي فضيلة لا يقبلها رذيلة أن صاحبها بالغ وغلا في الأمر لأنه انما يغرق في النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد في التصوير ليكون أبلغ في التأثير ويتناهى في الدعوى استدناءً للغاية القصوى .

هكذا يصنعون إذا أرادوا التضليل أو الاعتذار لأنفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج إلى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لأن الانتصاف منها لا يتأتى إلا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا إذا ترجمناه إلى لغة العلم ونظرنا إليه في ضوء الاستقراء الحديث .

ما هي أخلاق المنفلوطي ؟ هي بألفاظه - أو أن جادل فيما ارتضى أن يوصف به من الألفاظ - انقباض عن الناس ووحشة - عفة حتى عن مد يده إلى أبويه - كرم في الخلق طالما كان سبب في وصول الأذى إليه - حلم يظنه الظان عجزا وضعفا - صمت طويل يحسبه الناظر عيا - ما رؤى يوما من الأيام ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويطير رشد الحليم[1] مات له طفلان في أسبوع واحد فسكن

(١) قال لسنج الشاعر الناقد الالماني « من لا يفقد عقله أمام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده » .

لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما - وليس أحقر فى نظره من المادحين له ولا أصغر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه - لو أن الناس جميعا أجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا علي رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته - ليس أبغض إليه من الكذب - يحب حتى العتاب المر والتقريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا - يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض - أن كل فى أخلاقه مأخذ ففى هذا الخلق خلق النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم - وطنى بتهالك وجدا فى حب وطنه ويذرى الدمع حزنا عليه .. إلخ .

ولا تنسى أنه جرئ جرأة معدومة النظير فى التقحم على حياء الناس بهذه النعوت الغالية وأنه محب مفرط الحب للإنسانية - فيلانثروبست - وأن أسرته مشهورة بالتقوى وأن أبناءه يموتون فى غير السن التى يكون فيها الاهمال والجهل سبب الوفاة المباشر فى الأغلب والأعم .

*

فكيف تصف هذه الأخلاق أيها القارئ ؟ أما أن تكون مصدقها فتنظر فى دلالتها أو مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رأيا لك .

أخلاق نادرة ؟ نعم ليس أندر منها مجتمعة وأن اتفقت للناس

متفرقة ! ولكن الأمر أكبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هاك دلالة هذه الأخلاق الرائعة النادرة فى نظر الدكتور نسبت قال :

«ولما كانت التفوى فى الأغلب من أعراض الحالة التشنجية وكان الغرور وكثير من الخصائص البسيطة أو المركبة توجد فى حالة غير عادية من النمو إذا كان الجهاز العصبى غير سليم فليس من المدهش أن يكون البخل من أعضاء ما يسمبه (فيرى) أسرة الأمراض العصبية . وحب الإنسانية – فيلانتروبى – نفسه مما يجرى هذا المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجون جبارا فى بيته وكان له ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الأنانية أيضا وشرح هذه الحقائق فيما أسلفنا عليه القول على الإرادة . وذلك أن بعض مراكز المخ – واحدا أو أكثر – تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات أو الاجابة عليها فتسود فى حيز الادراك طوائف معينة من الآراء أو تصير الغلبة لنزعات معينة مستقلة عن الإدراك . وهناك قوم – كما يقول المثل – لا يصغون إلى داعى العقل ولا يحسون إلا أنفسهم ومصالحهم . وآخرون يبلغ من تضحيتهم بالنفس وانكارهم الذات أن يخرجوا – بغير مبرر معقول – عن كل متعهم وكل ما ملكت أيمانهم لفائدة جيرانهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الأعصاب كالمعمودين أو المصابين بالتشنج . ويقال على العموم أن الاعتقادات الحادة القوية تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب العصبى وعلى العكس من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب الرأى » .

فما قول المحتج للمنفلوطي في هذه الكلمة التي كأنما كتبها صاحبها لما نحن في صدده وأيهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ أن نؤمن بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلال الغريبة فيلزمه حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين في أعصابهم أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وأن ما به ليس ايثارا وحبا للانسانية متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها في الكتابة وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم واستصغار لأحلامهم واستهانة بعقولهم ؟

لسنا نتشبث بأحد الحكمين فليختر القارئ لهذا الكاتب أخفهما وأهونهما في رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتجة بعد واحدة .

«الأشقياء في الدنيا كثير وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم» .

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما أحلكها وأحساس بالعجز المطلق والقصور التا . وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التي تغشى النفس أحيانا ويكون مردها إلى ما يلقاه المرء من الخطوب في حياته أو في علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتي لا تمنع أن يكون الإنسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر إلى الأمور صادق الوزن لاقدارها . نعم من الطبيعي أن يكتئب مثلا من يحتسب طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأنس الرشد من سماته أو من يرى نفسه منبوذا من الناس لفقره أو ضعة

قومية فى أبيه أو من يمنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء اليائسة التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجزة ودار أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم - أى تعليل لها من الأحوال التى تكتنفه هو أو سواه ؟ وأى باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشل ولا يخرج الأمر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب فى المفتاح كأن يكون مكسورا أو أن تكون انبوبته مسدودة أو أن تكون أسنانة بالية وأما أن يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط فى جوفه أو أن يكون شئ فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون الصدأ عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بأنبوبة المفتاح عن حديدة القفل أو أن تديره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب فى هذه المرة راجعا إلى القفل أو المفتاح بل إلى الخطأ فى عملية الفتح .

أهبنى غضبت . فالأمر فى هذه الحالة لا يعدو أحد فرضين : أن يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيئ فإذا كان أحساسى مناسبا لدرجة الاساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعيا ولكن لنفرض أن الأمر جاوز المعقول وأن الغضب هاجه ما ليس فيه اساءة وهو الفرض الآخر فنعود إلى مثال المفتاح والقفل ونقول أما أن تكون الظواهر الخداعة أو الأنباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد إلى الاساءة وتعمد الإيذاء فيثير فى

نفسى ما يحيط بى مثل ما يثيره الايذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الإحساس والعمل راجعـا إلى الوسط والعيب عيب القفل - أو يكون العمل فى ذاته غيـر مقصود به إلا الخيـر كأن يرتب لك خادمك أوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت فى يومك من النصب أو لـعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك ويبلغ غـضبك مبـالغا لا يتناسب مع الظروف - أى لا يلائمها وفى هذه الحـالة يكون عدم التناسب الاحساس والظروف مـرجعه إلى عله فـيك والعيب عـيب المفتـاح إذ كان قد هـاجك مالا يهـيج فإذا أصبـحت فى اليوم التـالى وقد سرى عنك وسكنت نـفسك وهدأ ثائرك وبدالك تهورك فـقد أعدت التوازن بين الإحسـاس والحادثة ولكن إذا ظل غضبك فى الصـباح كما كان فى المساء وطردت الخادم فـإن المسألة تخرج عن كونهـا عدم تناسب بين الاحسـاس والحادثة وتصبح عجـزا عن إعادة التوازن بينهما يدل على أن «عملية» الموازنة أو الملاءمة مضطربة .

وهذان المثلان ينطبقان على عدم التـلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا إلى علة عضوية أو إلى أن للبيئة أحوالا ليس لها المرء بكفـاء أو هو يجهلهـا أو لا يعرفهـا معرفـتها وفـى كلتا هاتين الحالتين يكون العيب فى القفل أو المفتاح ولكن إذا كانت البيئة ليس فيها من الأحوال إلا ما يستطيع أن يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا على الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا أن يلائم بين نفسه وبينها فإن الفشل فى هذه الحالة لا يكون مرجعه إلى عـدم كفاية أو عيب فى هذا العامل أو

ذاك بل إلى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه أبدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الأجهزة العصبية والاضطراب في السلوك والاضطراب فى الإدراك ويدخل فى هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهى أشياء على أوضح ما تكون فى قصص المنفلوطى كما سترى فيمايلى :

العبرات «قصة اليتيم»

ونعود بعد هذا الإيضاح إلى ما كنا بدأناه من الكلام على عبراته فنقول أنها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن أمثلة الضعفاء الذاهبين مذهب التصنع والافراط فى الرقة والأنوثة والباقى موضوع وهو فى كليهما ملفق مستحيل التلفيقات – حتى فيما هو مترجم منها يأبى له ذهنة المتنكس إلا أن يغير ويبدل تبديلا كبيرا الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته فى كل قصة تقريبا بينما هو جالس فى مكتبه الذى كأنما صار ملتقى كل صوت ولا قط كل نبرة وموجة أثيرية إذا به يسمع أنينا أو حنينا أو صوتا خافتا أو توجعا أو زفيرا أو نهيقا أو شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات أوهامه ومنكرات أحلامه – من العمر ملقى يتوجع على سريرا أو حصير فيذهب إليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر أنوثته ثم يموت الفتى – وهو ما لابد منه فى كل حكايات المنفلوطى فما أعظم شؤمه على أبطاله – فيغسله ويلفه في الأكفان ويحمله إلى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه التى كأنما لها «زر» فى تضاعيف ثيابه يضغط عليه فتنحدر وتسيل وأن كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا فى أسبوع واحد !!

فبالله ما لهذا الحانوتى الندابة وللأدب الذى هو حياة الأمم وباعث

القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقها وحافزها إلى أجل المساعى ؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع أن يتعظ بمصير أبطاله المخنثين - أن جار الجمع بين النعتين - وبموتهم فى شرخ الشباب وميعة العمر وكان فى وسع قرائه أن يعتبروا بهم لولا سقم أذواقهم ومرض نفوسهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسوجين على منواله وأن أخوف ما نخاف على هذه الأمة أن تجد هذه الجراثيم ثرى صالحا فى نفوسها فى وقت هى أحوج ما تكون فيه إلى من يبذر فيها بذور القوة ويدفعها إلى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الألمانى رواية «أحزان فرتر» وهو فى التاسعة عشرة من عمره أى قبل أن ينضج ويستكمل الرجولة فراجت واشتهر أمرها وانتشر بها الصيت إلى كل ركن وذهب بها السمع فى كل زاوية فى العالم الغربى ونقلت إلى جميع اللغات الحية ولكن واضعها الذى كان حقيقا أن يزهى بهذا النجاح وأن يفتتن بما وفقت إليه باكورة أعماله من الذيوع واستفاضة الذكر وأن يغريه ذلك بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة - ظل إلى أن مات لا يندم على شئ ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من عمل له خجلة منها حتى لقد تمنى لو استطاع أن يجمع كل نسخها من أيدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر أنها وصمة لرجولته ؟؟ لأن فرتر بطلها انتحر من أجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة أجل من أن

يقطع المرء حبلها لخيبة أمل كائنا ما كان أو أن شئت فقل هى أهون من أن يكبر المرء أمر سعودها ونحوسها إلى هذا الحد. وأن مما يصم الرجولة ولا شك أن لا يكون صحيح الإدراك للأمور وأن لا يستطيع أن يلابس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين الوسط.

فأين تخنث العبرات من هذه الرجولة الضخمة التى تقدر واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول فى الدنيا اشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس طالعهم ولأنعهم إلى الناس بل تقوم الحياة طلوع ثنايا ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطئ ومصيب وناهض وكاب عاثر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يمطلها دينها بل يؤديه إليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور أن أفلح ومعذور أن أخفق

جيته - تلك الصخرة القائمة فى لج الحياة تناطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهى وطيدة لا تلين ولا تساقط على الصدمات والأهوال - هو مثال الرجل الخليق بالحياة ، هو البطل الذى قرت عنده ثورة «كارليل» الهائج فى ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا يذوق طعمه الا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم احدى روايات جيته إلا أن يخضع للجامه ويستفيد لعنانه وإلا أن يخرج عن طبيعته - أن صح هذا التعبير - وينسى

جموحه مع المعـانى وركضه فى حلبة متوعرة من الاداء فجـاء أسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق المتحدر فى سهل دمث من الأرض .

ولعمرى ما أبعـد البون بين أدب تمليه الحياة المتدفـقة وصحة الإدراك وبين كتابة مـيتة مملوءة صديدا وبلى شائعـا فيها كهـذه العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التى لا نعـرف لها مثيلا فى كل عصور الأدب التى مرت بالأمم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثـلا لذلك قصة «اليتيم» التى صـدر بها عبراته وموضـوعها أن فتى فى العشرين من عمره مات أبوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا فكفله عمه وأكرمه وأحسن إليه أحسانه إلى ابنته التى كانت فى مثل عمر الفتى فشبا عشيـرى صفاء وخدنى مـودة ووفاء ، ثم ذهب كل أم ولم تكن تعلم أن الفتى يحبها لأنه هو نفـسه لم يكن يعلم بذلك ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمى فى نفسى ودا وآخاء أو حبا وغراما ، ولكنى أعلم أنه ان كان حبـا كان فقد بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يومـا أننى أحبـها لأنى كنت أضن بها وهـى ابنة عمى ورفيـقة صبـاى أن أكون أول فـاتح لهذا الجـرح الأليم فى قلبهـا ، ولاقدرت فى نفسـى يوما من الأيام أن أصل أسـباب حيـاتى بأسبـاب حيـاتها - ولا حاولت فى ساعة من الساعات أن أتسـقط منها ما يطمع فى مثله المحبوب ولا فكرت يوما أن استـشـف من وراء نظراتها خـبيئة نفسـها لا علم أى

المنزلتين أنزلهـا من قلبها منزلة الأخ فـاقنع منها بذلك أو منزلة الحـبيب فأستعين بارادتها على آرادة أبويها» .

فما ذنب امـرأة عمه إذا كان قد شاء أن لا يتكلم أو يقـدر أو يتسقط أو يـتشف ما يستشفـه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقوله ؟ وهو يعلم أن لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمـته لكان لها شأن آخر معه ، ولا يعقل أن يحسب المرء أن الناس أعرف منه بخبيئة نفسه .

إذن فليس فى رغبـة امرأة عمه أن تزوج ابنـتها شئ يستـدعى منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرد والانسلال تحت الدجى طلبها إليه أن يتحول إلى منزل لها غيـر الذى يسكنه على أن تقوم له بنفقاته فيه حرصا على الفـتاة أن يريبها شئ من وجـوده إلى جانبها عند خطيـبها . فانه موقف معقول واحساس طبيعى . ولاشك أن فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليـقا أن يجعله يسيغها . فلمـاذا انسل وآثر الاسـتشـراد والرحيل فـى البلاد ، ثم لماذا بعـد أن سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذى حـملته الخادمة إليه أن مات! أليس الواضح البين أنه عجـز عن الملاءمة بين نفسـه وبين هذه الأحوال والظروف عجزا ليس مرده لا إلى آفة فى جسمه ولا إلى الظروف !

وهذا بعد ليس فى شئ من الحب الطبيعى الذى يحس حامله بالغاية منه احساسـا واضحا ويدركه أتم إدراك ، والذى لا يفتـأ يتطلب التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين الذى لا يدرى أهو يحب

ابنة عمه حب الأخ لأخته أم حب الرجل للمرأة . ولا يقدر فى نفسه أن يصل أسباب حياته بأسباب حياته ولا يحاول أن يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم ولا يروق من تعلموا من هذه القصص أن يعدوا الهوى العذرى الذى لا وجود له فى هذه الدنيا الدنية مثلا ليس أعلى منه للحياة - واللين الذائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس - والانقياد للمرأة كالكرة فى يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلونية من جسمية وعقلية والزفرات والانات والدموع وتقليب الأكف والذهول والنحول والاصفرار والاطراق ونكت الأرض والكلام الذى لا يقوله ولا يفهمه عاقل والنظرات الشاردة البلهاء فى المجالس والمحافل وسهر الليل ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل أطراف الأصابع للأشباح والخيالات وتحميل الرياح أنواع السلامات والتحيات الطيبات المباركات . .

لا . لا يرضى هؤلاء كلامنا وأن كان الحقيقة لأنهم لا يطلعون على الحياة إلا من منظار المنكرات التى تصفها لهم هذه الروايات ولا يفكرون أو يحسون أو يعملون الا على مثال أشخاصها ولا غرابة فى ذلك فان من لا تؤهله تجاريبه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائى لا يسعه إلا أن يسلم بصدقه ويستمد رأيه فى الحياة من كتابته ويتخذ أشخاصه قدوة تحتذى

وتقلد . وهذه نتيجـة يعلمها من له أقل المام بعلم النفس وبتـأثير الايحاء لاسيما فى الضعفاء والشبان والنساء ومرضى الأعصاب .

واذكر على سبـيل التمثيل لتـأثير هذه القصص المنحـوسة انى أعرف رجلا بلغ من استيلاء «سنكلر» وضروب احتياله على نفسه وهواه فى صدر أيامه أن ظل سنين وليس له غـاية يطلبها سوى أن يكون عـلى رأس فرقة من «البوليـس» السرى يطارد المجرمين . ذلك لأن هذه القـصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان واخـصها الحب بتنبيهها مركز التـوليد قبل الأوان وقبل أن يكون الباعث على الحب هو النضوج الجنسى فى الفرد .

أسلوب المنفلوطى

أما أسلوب المنفلوطى فى هذه القصة وفى سواها فأسلوب رجل لا يبالى من أى مدخل دخل على القارئ مادام يقدر أن سيصل منه إليه ولا أى بلاء يهديه فى احتياله ويقحمه عليه وإذ كان يعرف من نفسه التلفيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التأكيد والغلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس أدل منه على الكذب والتزوير لما وقع فى وهمه من أنه يكسب الكلام قوة وشدة لا يفيدهما أن يلقيه ساذجا ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وأن العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس إلى أخره دون توقف واعتراض . ومع أن قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فان فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحد لا يكون الأسلوب أسلس وأطبع بدونه . لكنه ذهب إلى المبالغة فى كل شئ وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الافحاش فى التأكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارئ فى أى كتاب يفتح من كتب الأدب .

ومعلوم أن الكلام لا قيمة له من أجل حروفه فان الألفاظ كلها سواء من حيث هي ألفـاظ . وانما قيمته وفـصاحته وبلاغتـه وتأثيره تكون من التـأليف الذى تقع به المزية فى معناه لا مـن أجل جرسـه وصداه ، وإلا لكان ينبغى أن لا يكون للجملة من النثر أو البـيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الألفاظ ليست إلا واسطة للاداء فـلابد أن يكون وراءها شئ ، وأن المرء يرتب المعـانى أولا فى نفسـه ثم يحذو على ترتيـبها الألفاظ وأن كل زيادة فى اللفظ لا تفـيد زيادة مطلوبة فى المعنى وفضلا معقولا فليـست سوى هذيان يطلبه من أخذ عن نفسه ، وغـيب عن عـقله ، وأبلغ من ضـلال الرأى أن راح يحـسب أن تأليف الألفاظ تأليـفا طبيعيـا مطردا خاليا من العكس والقلب منزهـا عن الحشو والحشـر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتـأثير . وينسى المسكين أن كان كلمـة يستطيع القارئ أن يسـقطها بدون خسـارة فى المعنى أو تعويق لتحدر الاحساسات أو أفقـار لغناها - كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فـإن العالم أغنـى فى باب الأدب من أن يحتـمل هذا الحشـو ويصـير عليـه وليس شئ أحق بأن يثـير عـقل العاقل من عـدم اكتـراث الكاتب لوقـته ومجـهوده وكم من كاتب أضـربه هذا الداء وآخر ضـئيل الشأن والحـال لم يحيه من المزايـا غير حـبك الأداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمـه المنفلوطى لأن اللغة عنده ليست الا زينة يعرضهـا وحلى يخيل بها لا أداة لنقل مـعنى أو تصويـر احسـاس أو رسم فكرة . ومن أين له أن ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى فى صدره ولا فكرة فى ذهنه .

وهذه أمثلة للمفعول المطلق فى كتابة المنفلوطى وكلها لا ضرورة إليها ولا داعى إلا من الرغبة فى تأكيد الغلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الأخرى .

١- وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه (ذوبا) .

٢- فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

٣- ثم لم أزل أراه ...... أو منطويا على نفسه فى فراشه يئن (أنين) الوالهة الثكلى .

٤- وأتمنى لو استطعت أن أدخله (مداخلة) الصديق الصديقة .

٥- وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجد .

٦- وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجا) شديدا .

٧- فشعرت برأسه يلتهب (التهابا) .

٨- وإذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه (موجا) - يصف نحوله.

٩- فاستفاق قليلا ونظر إلى (نظرة) عذبة .

١٠- فتنهد طويلا ونظر إلى (نظرة) دامعة .

١١- أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك .

١٢- فأنزلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى .

١٣-١٥- فعنى بى (عنايته) بها وأرسلنا إلى المدرسة فى يوم واحد فأنست بها (أنس) الأخ باخته وأحببتها (حبا) شديداً .

١٦- ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقدا) لا يحله الا ريب المنون .

١٧- فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كأسها .

١٨- ثم انسللت من المنزل (انسلالا) من حيث لا يشعر أحد .

١٩- وهكذا فارقت المنزل . . . (فراق) آدم جنته .

٢٠- فرحلت (رحلة) طويلة .

٢١- هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بى الأرض الفضاء - يعنى غرفته - (دورة) سقطت على أثرها فى مكانى .

٢٢- فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .

٢٣- وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت أن كبده قد أرقضت .

٢٤- وأن الضربة التى أصابته قد سحقته (سحقا) .

٢٥-٢٦- أشعر برأسي يحترق (احتراقا) وبقلبى يذوب (ذوبا) .

٢٧- ثم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها إلخ .

وقد عددنا له إلى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى إلى أى رقم

يرتفع العدد إذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم أنفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل الشأن واحد فى كل كتابته أم هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة وحدها فإذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب جميعا !

ولعل القارئ لاحظ فيما أوردنا من الأمثلة كثرة النعوت والأحوال كقوله «خرجت منه - يعنى المنزل - شريدا طريدا حائرا ملتاعا» وقوله : «تركنى فقيرا معدما لا أملك من متاع الدنيا شيئا» وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس «قريحة معذبة» وقد يعلم القارئ أو لا يعلم أن هذا الاسراف فى النعوت من دلائل الضعف وفقر الذهن لأن الكاتب انما يرصها واحدا بعد واحد وفى مرجوه أن يوافق واحد منها محله وأن يقع فى مكانه ولكن المطبوع يعرف ماذا يأخذ وما يلقى وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات من علامات الوهن لأن الكاتب الضعيف لا يستطيع أن يتحرى الدقة إذ كان لا يدرى أى الرموز اللفظية أكفل بالعبارة التامة عن المعنى المراد فهو من أجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الألفاظ بلا حساب مستعينا على الاختيار بالأرتباط الغامض بين الألفاظ فى ذاكرته وبرنين الأصداء المتقطعة للأصوات المألوفة . وهناك أمر آخر وهو أن الترادف فى اللغة من الأكاذيب الشائعة إذ ليس ثم فى الحقيقة لفظان يؤديان معنى احدا على وجه الضبط وما من مترادفين يزعم الزاعمون أنهما سواء فى المدلول لا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر ، فإذا

ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعانى متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعنى على التحقيق وأى مدلولاتها المتفاوتة يقصد إليه ويريد منا فى فهم المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن فى هذا مثله فى التصوير والرسم فكما أن المعول فيهما ليس على كثرة الألوان بل على اصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك فى الكتاب ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعنا السخفاء وأشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوى غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأى حماقة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق إليه وأن كان على هذا لا يحتاج إلا إلى أيسر فكرة وأدنى نظرة وهو أن اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شئ فى ذاته ولا معنى له فى نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الألفاظ بعضها إلى بعض كاللون فى ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئا إلا بعد أن يأتلف مع سواه ويجرى كل إلى أخيه مجراه وليس لغير ذلك مساغ فى العقل أو مجاز إلى الفكر وقيام فى النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجى لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفى جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيفة ، والا فأن أحدنا لا يعجزه أن يعمد إلى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد

وليست كثرة الألفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وانما التأليف والتركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هي آية هذه السعة والطول والكثرة فلا تجعل بالك إلى الألفاظ إذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن أجعله إلى طريقة تأليفه الكلام فان رأيته يدور منها في حلقة لا يكاد يعدوها حتى يكر إليها فاعلم أنه ضيق المضطرب محدود المجال ، وضئيل الحال، والق بعد ذلك ألفاظه من أى حالق شئت .

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب : «فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الأرض أحد أذل منى ولا أشقى» - «ومارئى مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكيا» أو هذا التأليف «فما هو أن مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه» - «وما هى الا أيام قلائل حتى ضر الدهر بينهما بضرباته» ونحن فانما نمثل ولا نستقصى ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر - والألفاظ كالحجارة فى محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها فى راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة التثبت فى انتقاء الألفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التخنث فى كتابته وملفق مستحيل التلفيقات ، وأنه لا يزال يعالج التأثير بالتطرى والرخاوة فى العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتأكيد فى صوغ الكلام

وتصـوير المسألة فـان بنا بعد هـذا أن ننظر كيف يسـوق القصـة أى فى الأسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها فى تناول الموضوع وعرضه .

وقد ألف الناس لطول عـهدهم بالمقلدين أن ينظروا إلى الأسلوب من حيث هو تأليف لـلكلام على معانى النحـو ونحن نريد أن نلقى على هذه القردة درسـا فـيما يفيـده صحة النظر واعـتدال ميزان العـقل وسعة أفق الفكر . وأنا لنعلم أنه لن يفيـدهم الا الحسرة على ما أضاعـوا من العمر وجنوا من السـوء والخبـث فى هذه الأمة التى نكبـت بهم على قدر سـدر أعينهم وضلال أفهـامهم ، ولكنا ما قصدنا قط إلى أمالتهم -ـما هو فيه وأن كانت الخـزائم حاضرة بل تبصـير من له طبع من النشئ إذا قدحـته ورى وهدى من له قلب إذا أريته رأى .

ونمهد لما نريد تبـيينه بمثل من التـصوير محـسوس فان هنا قـوما لا يدركون الشئ أو يصـدمهم فنقول أن ههـنا فى ناحية من الطريق شـرطيا واقفا يرقب الحركـة ويلاحظ العادين والرائحين والراكبين والراجلين ويمنع الزحام ويقـتاد المتنزين إلى الـشر إلى أى هو تابع له من «الاقـسام» تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى يديه وتقيس النصب الذى ينبغى أن يعانيه إلى القدرة اللازمة التى لا تؤاتيه فـتعطف عليه فى محنته وترثى له فى وقفـته وتصوره وأنت ناظر إليـه من جانب الجد الذى لا هزل فـيه وفى ضوء الواجب مكابدا أوامـره ونواهيه – هذا وربما ذهبت تعتـبره مرة أخرى من الجانب المضـحك فى هيئته وفى تراخى همته وبـطء حركته أو

عدم التلاؤم والتناسب فى بزته ووفاء قامته وتخاذله فى مشيته وتثاوبه واستناده إلى الجدران وذهول نظرته أو حواره مع الباعة وتأتيه إلى غايته وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جذبته أو تواريه فى الدروب ووراء العمد إذا جد الجد بالطعام فى «نقطته» إلى آخر ذلك . ثم تصوره صورة تركبه فيها بالدعابة فأنت قد تناولت موضوعه من جهتين متباينتين إذ كنت قد نظرت إلى أمره وحاله نظرتين مختلفتين كنت فى الأولى جادا وفى الأخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين معبرة عن اعتبارك أياه ناطقة بالغرض منها فوجهة النظر إلى الموضوع والطريقة التى تتحراها لغايتك هى ما نسميه أسلوب التناول ولا شبهة فى أن المرء ينظر إلى الأمور من جهات معنية - من ناحية الجد والهزل أو المألوفية أو الشذوذ أو الجلال أو الحقارة وليس يعنينا من أى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنيا مقدار ما فى سعيه من صدق السريرة وصحة الإدراك ودرجة النجاح ومبلغ التغلب على الصعوبات . ونقول مبلغ التغلب على الصعوبات لأن القصصى لا تظهر قدرته فى المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون أشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفى المواقف التى تتطلب أدق النظر وأشق التمييز وأصح العبارة .

فكيف تناول المنفلوطى موضوعه وما هى الفكرة العامة التى نظر بها فيه ، وبماذا أعد لها وكشف عنها وهل اللغة التى استعملها صادقة وهل السلوك الذى عزاه إلى أشخاصه مما هو معهود فى الآدميين كما

نعرفهم وما مبلغ اسرافه أو قصده وما مقدار خبطه وتخليطه أو اصابته وسداده .

عسى قائل يقول : أنك تضعه فى ميزان لم ينصبه لنفسه ولا كان له باله ولا جرى له هو وأمثاله فى خاطر . وردنا على هذا المحتج أن الأدب لا شأن له بهذا الاهمال أو الجهل والاعتداد فيه إلا بالصلاحية للحياة . وهى هى ميزانها أبدا واحد ولا رفق فيه ولا هوادة فإن خفتم على صاحبكم أن تشيل به الكفة فأخرجوا به من هذا الميدان واذهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم إلا أن تعدوه كاتبا أديبا فلا مسمح عن قذفه فى هذا الاتون الحامى لنعرف من أى معدن هو . وأنتم بعد خلقاء أن ترضوا لصاحبكم ما نرتضى لأنفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش فى عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيفات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفذ فى حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطا زاخر العباب يضطرب بنا متنه فى عشى ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ إلى المعرفة والحنين إلى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب فى أثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون أن الأدب والفلسفة – أو النظر المخلص الصحيح أن شئت – لا يتفقان وأن الغائص على الأسرار الطالب للحقائق لا يكون أديبا وأن

الأديب لا يكون متـفقدا ورائدا وأن ما وصل الله من الخصـائص . وآلفة يجب أن يقطعه الانسان ويعادى بينه ولكن عـهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط فى هوة الأبد وجـاء زمننا الشادى بعلاقة الطبـيعة بنفس الآدمى الراكض بمداركه من ميـدان إلى ميدان ، والمريخ وراء السماء سـماء وبعد الآباد ابادا ، المصيخ إلى صـوت اعتلاج موج الزمن المنكسـر على صخور ذلك «العالم الآخر» .

ونعود إلى صاحبكم المنفلوطى - وما أهول هذا الانحدار - فنقول أن فيما أسلفنا القـول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شـخصها لكفاية وفوق الكفاية . ولقـد كان حسب سوانا فى غيـر هذا البلدان يشير بطرف القلم إلى ما فـصلناه ولكنا وطنا النفس على الجلد ورضناها على السكون إلى ما تكلفنا أياه حداثة العهد بالأدب الحى .

يحسب المنفلوطى أن تكلف التـفصيل فى المحسـوسات مظنة الاجادة وفاته - وأنى له أن يفهم هذا - أنه لا يعجز أحدا أن يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل أم قصير ونحيل أم بدين وهل فى يده كتاب أم عصا ونائم هو أم جـالس ؟؟ وإنما محك القـدرة فى تصـوير حركـات الحيـاة والعـاطفة المعـقـدة لا ظواهر الأشـياء وقـشورهـا وفى رسم الانفعـالات والحركات النفسية واعتلاج الخوالج الذهنية وما هو بسبيل ذلك .

أما تفـصيل المنفلوطى فـلا خير فـيه بل الخيـر فى اجتنابه وتحاشـيه وليذكر القارئ أن هذا المسكين يروى عن نفـسه ويحدث بما يدمى أنه كان

شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب - وهو بطل القصة - فى البيت المقابل له فى الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن أنه قد استحق المنزلة الأولى بين شيوخ الرواية .

«كنت أراه من نافذة غرفة مكتبى وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فأرى أمامى فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا إلى مصباح منير فى احدى زوايا الغرفة (ينظر فى كتاب أو يكتب فى دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين الاستظهار والاعادة وكيف رأى شحوب لون الوجة مع هذا البعد ؟ ولكن هناك ما هو ادهى :

«عدت إلى منزلى منذ أيام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرفت عليه فإذا هو جالس جلسته تلك إلى مصباحه وقد أكب بوجه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب إلى فراشه وسقطت به فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان من البكاء وإذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها إلى بعض ثم لم يلبث ان عاد إلى نفسه » .

وهى لا تفيد ولا يمكن أن تفيد شيئا سوى أنه يريد أن يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارئ ثم هل تدرى أنه أحس أنه موشك أن يقول شيئا مستحيلاً ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين

النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضاق وحتى لو كان الوقت وقت الظهيرة المتقدة الملتمعة لا يسمح بأن يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة أو جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصابه لم يجد ما يخرجه مما أوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير أن يقول أن الفتى رفع رأسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وأنت أيها القارئ هل قنعت أم نزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثالثة الاثافى : ذهب المنفلوطى إليه لأنه سمع «فى جوف الغرفة أنه ضعيفة مستطيلة» ووضع يده عليه فعلم أن الفتى محموم .

«فأمررت نظرى على جسمه فإذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائية وإذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه موجا فامرت الخادم أن يأتينى بشراب كان عندى من أشربة الحمى فجر عنه منه بعض قطرات فاستفاق قليلا» .

ابنا حاجة إلى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا محادثته اياك لم تره وبالجسم لو تؤكأت عليه لانهدم فاما القميص من الجلد يموج فيه البدن فلم نكن نتوقع أن يسمعه أحد إلا فى مستشفى المجاذيب ! ومع كل هذا النحول احتاج صاحبكم المنفلوطى أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست أحب أن انغص على القارئ كتابنا بكثرة ما أورد من هذه

التلفيقات المنكرة ولكنى أسأله الصبر على هذه الجملة أيضا - دعا المنفلوطى الطبيب فجس المريض وهمس فى أذنه أن العليل مشرف على الخطر - ولا عجب أن يصير إلى هذا المصير الخبيث بعد أن جرعه المنفلوطى - شراب حماه - ثم دفع إليه المنفلوطى الأجر وأحضر الدواء .

«وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقية الدواء مرة وأبكى عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر» .

والعادة أن الأشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية) يحددها الطبيب ولكن الظاهر أن طبيب المنفلوطى أمره أن يعطيه الدواء بعد كل . . . بكاء !؟

ومع ذلك فإذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطى مات له طفلان فى أسبوع واحد «فسكن لهذا الحادث (سكونا) لم تخالطه زفرة ولم تمازحه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا عليهما » ؟؟؟ وكذلك كأن سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس إلى الناس يحادثهم حتى كان المرزوء سواه .

وبعد أن استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب المنفلوطى عليه وابلا من الأسئلة وهو يعلم أنه فى سياق الموت (فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآنى فقال أنت هنا ؟ قلت نعم : أرجو أن تكون أحسن حالا من ذى قبل . قال أرجوع أن أكون كذلك . قلته : هل

تأذن لى يا سيدى أن أسألك من أنت وما مقامك وحدك فى هذا المكان وهل أنت غريب عن هذا البلد أو أنت من أهلية وهل تشكو داء ظاهرا (باللعمى) أوهما باطنا وهل لك أن تحدثنى بشأنك وتفضى إلى بهمك كما يفضى الصديق إلى صديقه فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب أن الفتى لم ويصفعه ماذا كان يخشى المسكين لو فعل وهو ميت لا محالة - بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى انتهى بين يدى هذا الحانوتى بعد أن فرغ من الحديث الذى يملأ أحد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه فى ساعة الموت ! وما أخلق هذا الادب الميت بأن يروى عن المحتضرين ؟ وما أحق أهل الفتى أن يطالبوا المنفلوطى دمه ؟

إبراهيم عبد القادر المازنى

شوقي في الميزان

٢

عرضنا (شوقي) في الميزان لأول مرة فارتج به ارتجاجا عنيفا وايقظه من غفله كان فيها سادرا وما هو الا أن حط به ثم شال حتى تمنى أن يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسرته: «هبوني ليست بالمشاعر اليس لي فخر آخر أدل به ؟؟» .

نقول أجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول .

أما القراءة فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لأربعة اجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره في أوانه - أسرعوا إلى اقتنائه حتي نفدت نسخة في أسبوع أو أقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارئ واحد وتوالى الطلب له في المدينة والأقاليم فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها إلى الأدب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضي ذوى العقول المتزنة والفطر المستقيمة والاطلاع المجدى وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم فيه جميل. ومنهم أذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على

الجادة وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون . وطائفة أخرى حظها من السماع أكثر من حظها من الاطلاع وجدناها إلى الموافقة المشفوعة بالدهش أميل منها إلى المنافرة والعنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطأ ويتهم ناقدته بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التغيير ، وفى هؤلاء أمل لا يضيع ولا سيما بعد هداة الدهشة وتطامن المفاجأة لأن نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة أن اثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته أو يعسر عند اليأس منذ نبذه . وأما التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ونعنى فريقى القراء - وبالحرى المتحدثين - الين لم نوجه إليهم خطابا . وهما فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والغرارة ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربية الديكة ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التى فتن بها . ومن أظرف ما يروى عن أحدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التى أقام لها الأزهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن بأصنافه فى تلك المناحة فظن - صان الله لشوقى اعجابه - أننا انما انكرنا سكوته عن القطن وأردنا منه أن يذكره فقال متعجبا : وهل كان القطن (طالعا) وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟؟

والفريق الآخر من الساخطين هم أولئك الذين عرفوا بأنهم شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فما رأينا أحر من سخطهم ولا أكثر تصنعا لأسبابه وتمحلا لعلله ، وهذه آخر اشارة نلمح إليهم بها .

*

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه إلى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين وأشبههما بالحق أننا اخترنا أوهن قصائد شوقى وأكثرها مغامز . وليس هذا صحيحا فإننا انما رأعينا الحداثة فيما اخترناه من قصائده وهى لا تقل فى اعتقادنا واعتقاده عن أجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة - كما قلنا فى الجزء الأول - هى أن قراء اليوم غيرهم بالأمس فليس يرضيهم ما كان فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هذا القول بأننا انما كنا نصوب الانتقاد إلى شاعرية شوقى وذوقه وروح قصائده ومنهج أدبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأنى ، وإذا كان الطعن فى الشاعرية والعاهة فى الذوق والاعوجاج فى المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والأسلوب لا يقدم ولا يؤخر فى الحكم على الشاعر . ولعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث فى شعر شوقى سواسية .

أما ثانى الاعتقادين فهو أننا أغلظنا العصا لشوقى وشددنا عليه النكير . ولهؤلاء نقول أننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما أحوج البرهان فى هذه إلى الشدة وما أقل ما يغنى فيه اللين والهوادة .

ومما استصعبوه أننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين . فياعجبا !! كأننا نحن نهينه إذا قابلنا أدعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة فى أشنع ضروبها !! وأى حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقا ؟؟ فنحن لا نرى للرجل فى أنفسنا قدرا يتجافى به عن أخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما أعلناه فى تواطئة الجزء الأول ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الأجزاء التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا والضمير الأمة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ما شاء فأنه يعرف كيف يغضب .

وكأننا بزمرة شوقى يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التى يغضب لها الناس فى آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا نؤكد لهم أنها حقيقة تحس وتلمس وأن كانت لا تؤكل ، وأنها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت أبان ظهور الجزء الأول عسى أن يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الأديب الجديد بشرف الأدب ، وما

ترخص لـه المحاكم فى التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال فى حاضر الزمان ، لا فى سالف العصر والأوان وفى الجزر البريطانية لا فى جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص - لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها «إذا» يحض بها الهمم ويذكى فى النفوس الضرم . شاءت شركة جناتوزان أن تقتبس منها أبياتا لترويج غذاء مشهور من أغذيتها التى تجهزها لمداواة الأعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من أمر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذى قلنا أنه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا أنه قاضاها إلى أحدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله - ويدعى المستر هيوز - وقف فطلب إلى القضاء منع الشركة من امتهان الأبيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . «أنه لمن أصعب الأشياء أن يتخيل الانسان أمرا أشد ايذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة فى صياح الباعة على سلعهم . أنها لاهانة لا تقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه أقل مسحة من الكرامة الأدبية» .

قالوا : فلما نطق القاضى بحكمه عذر الشاعر وقال : «لا عجب أن ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة - وعندى أن هذا الاقتباس لا يدخل فى حق الاستشهاد الذى يجيزه قانون حقوق الطبع

الصادر سنة ١٩١١» وحكم بتغريم الشركة أربعين شلنا تعويضا للاهانة التى ألحقتها بالشاعر(١) .

فهذه أسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التى يسمونها الكرامة الأدبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الأساطير فى غير قصور ألف ليلة حريون أن لا يقفوا بها عند حد التفكهة .

لمثل ذلك الابتذال يغضب أديب الغربيين ويقول محاميهم أنه أشد ما يتخيل ايذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، أن صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لأن أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون لـلغيرة الأدبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر إلا أنه «آسرى مروءة الدنى وأدنى مروءة السرى» كما كان يقال فى عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة إلا أعجوبة مبهمة ولغزا مغلقا ، لان

---

(١) جريدة الديلى كرنيكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

هذا الذى أنف كبلنج أن يصنع بشعره على غيره على علم منه قد صنعه شوقى بشعره مختارا وتعمد أن يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ ألم ينظم أبياتا يروج بها «ريشة صادق» ونشرها فى الصحف ؟ بل فقد قال أدامه الله للدكاكين والمآتم والأفراح والسهرات :

لله ريشـة صـادق من ريشـة ... تزرى طلاونـهـا بـكل جـديد
كست الكتابة فى المشارق كلها ... حسنا وفكتـهـا من التـقـييـد
تهدى لحسن الخط كل مقصر ... وتمد فى الاحسان كل مجيد
أغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها ... من ريشة الالماس عند الغيد
والدفوف الطرس أن خطرت به ... من ريشة الليثى فوق العود
وتكاد تحيى مؤنسا بصريرها ... وتقول أيام ابن مقلة عودى
لو لم يكن فى الأمر إلا أنها ... مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفى هذه الأبيات أوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة - شعر لا يتأبه صاحبه أن ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقرية دراجة ابانت أن اخيلته وابتكاراته هى ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وأن من يروج ريشة كتابة بأنها « أغلى من ريشة الالماس» لقريب نسب ممن ينادى فى قوارع الطرقات «يا جواهر يا عنب» والذى يدلل على ريشة عربية بأنها «حسنت الكتابة فى المشارق كلها» انما يرشف من البحر الذى تغرف منه «الفرص الحقيقية وأحسن

بضاعة فى العالم كله» و «ولم لم يكن فى الأمر إلا أنهـا مصرية» شبيهة بكل ما ينسب إلى مصر والمصـريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى أن البـاعة لا يغلطون غلطة شوقى فـيقولون وهم يعرضـون الريشة ويمدحونها بالجد والسلاسة أن لها صريرا يكاد يحيى الأموات !!

وبعـد فان المرء لـيزدرى العـقل الإنسـانى نفـسه أن قـيل أن هؤلاء الصعـاليك الفكريين الذين تقـوم عليهم الامارة الشـوقيـة من ذوى مزاياه وحملة أمانتـه فى الأرض . فالأدباء فى الأمم هم عنوان حياتهـا الروحية والفكريـة ومعـيارا لما تحسـه من مفاخـر الحـياة وقوى الطبـيعة ومـعانى الوجود ، وهم الرافعـون فيه لقبس ذلك النور السماوى الذى يـفيضه الله من الآيات والفنون حـمالا ونبـلا . ويوحيـه كمـالا وفضـلا ، وهم إذا ذكرت الفصاحة فى الأمم صـفحتها الواضحة وطبقتهـا الممتازة الراجحة ، فقل لى رعاك الله أى هذه الطغمـة أميرا كان أو مأمورا تفخـر الأمة الحية بأنه صورة ما فى نفوسها من زينة وجمال ومظهر ، ما فى رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول بوجـداناتها وتعمر به صدورها من قسط فى الوجود ، وتراث مقسم بين أبناء آدم . وان المرء ليزهى بآدميته حين يلقى بنفسه فى غمـار الآداب الغربية، وتجيش أعماق ضميـره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهابها ومتجهـاتها وتجاوب اصدائها وأصواتها - أبواب للكتابة منوعة ، ومـهايع متـسعة ، وفنون مبـتدعة . ونحل ومـذاهب، ومدارس ومشارب . والحيـاة بين هذه الأفكار المشرقة معروضـة للنظر فى كل شية

من شياتها ، محسوسة فى كل خطرة من خطراتها ، متكررة متضاعفة ، شاكة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية . شهوانية متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة ينابيعها مروية ، والنفس تحس من احدى نواحى ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها .. فكأنها نفوس متفرقة لأنفس واحدة جاثمة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت إلى الأدب الذى يدعيه أولئك الأميون العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة المتطفلون على موائد الخاصة فترى عجبا . ترى هذا عاكفا على رقمية ولعلعه وذاك مدبرا إلى ربربه وسربه ، ومادحا وهاجيا ومحسوبا على آل فلان ومتمسحا بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول خاوية واخيلة فى التراب ثاوية . أو كأنما هى الأثقال إلى القرار هاوية . فصدق احدى اثنتين : أما أن أدبا تسمعه من هؤلاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو إلى أسمى معارج الإنسانية . أو أنهم ليسوا من ذاك وانما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباغة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وأن من الجناية على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء النفر بعد اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من أغراضه أو يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات أرزاقهم بعرض ثعابينهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا «للكلتور المصرى» يساق دعائمه لتمثيل

الروايات وانشاد الأشعار بأيسر مما يساق المولوية لتشييع الجنائز وتلاوة الأذكار !!

ولقد كان مما قيل فى المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها أحدى الحواجز التى تصونها أن ترتد إلى العصور المظلمة وأنها عصمة لها من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وأنها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب حسابه كل طاغية - فأى عصمة لمصر فى أقلام هؤلاء المخططين والنظامين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟؟ إلا أن العصا فى يد الاكار لانفع لمدينة مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون أنفسهم من الكرامة فلا احجاف بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصب عليهم . ولقد وجب بل آن أن يفهم الأدب على غير ما يفهمونه وأن ينحوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

*

وكأنما شاء القدر أن يبدد حبائل شوقى وطلاسمه كلها فى بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر عليه القوم يثنون عليه فيغترون بتشييعهم له ويروعهم أعجابهم به ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغانى فأماطت المسترعما وراء ذلك

وهتكت للناس حقيقة أعجاب هؤلاء العلية إذا أعجبوا وقيمة استحسانهم إذا استحسنوا . وأنها أن هى إلا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة .

شمرت اللجنة عن ساعديها وأغمضت أمام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندى إذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب فأخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به للملاكى يشاركها فى الابتهاج به فيللمهارة!! ولكنها لسوء حظ شوقى كانت تنقصها خفة اليد !!

ولا حاجة بنا إلى الاستنتاج ولا إلى العود لما حدث فى الجلسة مما أظهر اطلاع أكثر الأعضاء على النشيد قبل التامها اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الأول .

فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين - وهم أعضاؤها الاخصائيون - اختارت نشيد شوقى وأعلنت أسباب اختيارها له فى منشورها وهى أنها «انتهت فى مناقشتها إلى أنه اكفاها وأوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التى ينبغى أن تتسق لنشيد قومى » وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء أن الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك فى الصحف ينقد النشيد ويقرر أنه لا يصلح للتلحين بانغام الأناشيد القومية . ثم أنهم

يذكرون أن فريقا من أعضاء نادى الموسيقى من الذين كانوا فى لجنة الأغانى اذاعوا بعقب ذلك فى الصحف أن الأستاذ أنما يتكلم برأيه ، ومعنى هذا أنهم كانوا لا يزالون إلى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة مجدين فى أبعاد كل مظنة فى صلاحية «النشيد الوطنى المختار» للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبنى على المناقشة وهذا الاصرار الصادر عن روية ؟

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هى أمامهم وآقبلوا يسألونها وهى محتدمة تصفيقا : ما هذا الذى تصفقين له ؟؟ نعم لم يعد يكفى فى هذه الأمور أن يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون وراءه . وكثر اللغط بتحيزها واجترأ الموسيقيون على الافضاء بآرائهم فى تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه أول المنهزمين . فقد أخذ يزعم أنه أنما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة فى مسرحهم . . كأنما النشيد مشى بقدمين إلى ديوان لجنة الأغانى !! وخشيت اللجنة أن يكون حكم الأمة عليه حكما قاضيا على معرفتها وانصافها واخلاصها فبادر أعضاؤها الاخصائيون يبلغون الصحف أن النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومى!! وقيل بلسان رئيسها أنهم لم يشترطوا ذلك فى تلحينه . اذن فماذا اشترطم ؟؟ اتراكم كنتم تقدمون للأمة «طقطوقة» تغنيها على المعازف والآلات؟ وأين ذهبت تلك المزايا التى اتسقت «للنشيد الوطنى المختار» ؟؟

كذلك تهافت حكم لجنة الأغانى بيدها وانكشف طلسم كان من أبهر طلاسم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعنى به طلسم الأسماء الخلابة

ووهم الألقاب الجذابة . وعندنا أن لجنة هذا مبلغ غيرتهـا على مهمتها لن يرجى منها صلاح للأغانى ولا لسواهـا ولكنها إذا كانت تخرج من العدم لتؤب إليه بعـد أن تكون قد أبطلت وهم العامة فى أمـثالها فتلك مـهمة طيبة تستحق من أجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على أنها مهمة ننفسها على هذه اللجنة فـقد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضلا كبيرا فلو لم تقيضها الحوادث لاظهار قيمة التحبيذ والاطراء من ذوى الألقاب والأسماء لتكفل بذلك محفل آخر أقيم فى شهر ديسمبر الماضى وهذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها .

قال المقطم فى عدد يوم الثلاثاء الحـادى والعشرين من ذلك الشهر : قد كان يوم الجمعة الماضى ميعاد القاء القصيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعـر الفاضل السيـد محمـد عبد الله القـصرى فى الحفلة التى أقـيمت تكريما له برئاسة حضـرة صاحب السمو الأمير الجليل عـمر طوسون بدار الجمعيـة الإسلامية بقصر النزهة بشبـرا فما وافت الساعة التاسعـة صباحا حتى أقبل المدعون من علماء وكـبراء وأدباء وأعيان فازدحم بهم المكان ثم أقبل نائب الأمير مـحمد بك جلبى باشمعاون الدائرة فـصدحت الموسيقى بالسلام وكـذلك فرق الكشافـة للكشاف الأعظم ثم بدأت الحـفلة بالذكر الحكيم فنشيد شوقى بك فنشيد الكشافـة فمقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الأمير واعـتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعـر ناظم القصيدة وألقـاها بين الاعجاب والتصفـيق الشديد .

وبعد انتـهائه قدم له نائب الأميـر ساعة ذهبـية أثرية ثمينة وتبرع حـضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محـمد السعدى بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخيـة ثم وقف حضرة الشاعر العربى عمر بك السعدى وألقى قـصيدة عامرة أثنى فيهـا على سمو الأمير لتعـضيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من أصبـعه خاتما من الماس ووضعه فى أصبع الأستاذ القصـرى وقدم له سيادة السيد محمـد أبو بكر مرغنى شيخ السادة المرغنية بمصر خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عليش لوحة كتب عليـها اسمه بخطة الجمـيل وختمت الحفلة بنشـيد مدارس الجمـعية أنشده بعض التلاميذ والتلمـيذات ثم بالقرآن وأقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف لتهنئة الشاعر .

انتهى مـا نقلناه من المقطم . فليتأمله الـقارئ وليتصـور اسم شوقى مجردا من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره مـحلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . .

وثم مثل اخـر نسوقه تبـصرة وعبـرة لهؤلاء الذين لا يعرفـون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الشـفة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فـرنسيـة كان يصح أن تكون لجنتنا مـثلها فـى انصافهـا وفى الاخلاص للفن الذى تخدمه وتنشيط المواهـب الفتية التى تنهض إليه لولا أنها آثرت لنفـسها الخطة العوجـاء على الخطة المثلى . ففى فرنسـا مجمع معـروف يسمى مجمع المسـابقات (أكاديميـة كونكورد) يحكم فى كل سنة

بجائزة قدرها أثنى عشر ألف فرنك للسابق من الأدباء فى باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة المنصرمة فتى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها . أفيدرى القارئ من هذا أرنست بيروشون ؟

نقلت الأنباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسى يسأل عن شأنه فإذا المسئول والسائل فى العلم به سواء . راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فألفوها خلوا من كل اشارة إليه أو إلى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الأيام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظرى عنوان فى احدى صفحة هذه ترجمته «خير روايات العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الأكاديمية الفرنسية»[1] فتصفحت الجملة فإذا به صاحبنا بيروشون وإذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس «وكان بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا إلى يوم أمس جهلا تاما وأن كان قد طبع فى الأقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص .. ولم يكن أحد من أعضاء المجمع يعرفه إلا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقا فأعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الأدباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز أستاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر» .

فياقوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب . تلك لجانهم تعدل فى أحكامها هذا العدل وتحيى كل ملكة صالحة للحياة وهم

(١) جريدة الديلى كرونيكل عدد ١٣ ديسمبر ١٩٢٠

لا يأتمون بها مغمضين ولا يسلمون لـها خاضعين ، فكيف لو أنها كانت كلجنتنا هذه المباركة: لجنة لا تحسن غير المجاملة ولا تحسن أن تجامل الا بأن ترضى فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم والافقار! ان فى ذلك لموعظة .

*

وخاصة القول أننا عرفنا رأى القراء فى عـملنا فقسمناهم إلى فريقين فأمـا الذين يعجـبون بشـوقى لغيـر سبب معـقول يفئ إلى شـعره فـقد أسخطناهم ولا نسأل الله أن يخفف سـخطهم . وأما الذين يرجعون إلى الأسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة وكان أقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتى يرى . وأننا لنعلم أنه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : أن رأى الأولين يمثله كتاب ورد إلينا غفـلا من التوقيع يقول فـيه كاتبـه ما ترجمتـه : «خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة إليه» .

وجوابنا لهذا وأمثاله : «صدقتم ولا هو بحاجة إليكم» .

ويمثل رأى الآخرين بيت لقينا به أديب مشهور فقال : أيه يا فلان ، إليك بيتا يسير مسير الأمثال :

شـوقى تـولاه عـبـاس فـاظهـره   واليوم يخملـه فى الناس عباس

وجوابنا له : بل أنه عصر يخمل عصرا ولاغية وهم تخفتها صيحة حق . وأنا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسرة شوقى : ما ترى فى رثائه لمصطفى كامل ؟ أتنتقده ؟ قلت وماذا عساى أن أنتقد أن لم أنتقد الهراء والزيف والشتات؟ ؟ قال أن القصيدة آيته . قلت لقد هديتنى هداك الله فما كنت أظنها آية لأحد من العالمين وما حسبتها إلا زلة أسقطته فيها «مخالبة الشجون لخاطره» أو داهية خانة فيها امكانة الذى ما فتئ يخونه كما قال منها :

مـاذا دهانى يوم بنت فـعـقنى فيك القريض وخانني امكانى

وما دهاه إلا العجز والفهاهة والحرج . دهته اولا فأجبل وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها فى أربعين يوما ثم زاد كثيرا من أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانياً فجرى فيها على عادته من التلفيق والعقم والزغل المموه . فأما وقد علمت أنها الآية التى بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التى يستنصر بها دعاته فبأيته فلندحض رسالته وفى معقله الحصين فلنكشف وهنه ونفضح مطاعنه ، وأنه لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل وأى معقل ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل أخوى من ذلك واضعف ، وأضأل فى الضئولة وأسخف ، أراحه الله من شعره بما أراح من أقلام نقاده فانه علم الله لم

يزعج لهم بديهة وأن كـان يزعج بديهته فى صباح ومـساء ، ولا كد لهم خـاطرا وأن كان خـاطره منه فى وصب وشقـاء . ولقد فـات أصحـابنا سمـاسرة شوقى أن خـلافنا معهم لـم يكن خلافا على درجـات الاجادة وخطوات السبق فتـتقارب كلما أجاد شاعـرهم فى رأيهم أو خيب آمالهم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشـعر وجوهره ثم على أداته وطبقته فـربما كانت أرفع القصائد عندهم درجة أخسـها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حـيث نعزف كل العزوف . كـالمسحـور كلما ازداد استحـسانا لما هو فيه كان أبعـد عن حالة الصحو والصواب وكـالاعجمى كلما أمعـن فى فصاحته وبيـانه استغلق على مسـامع الاعراب . وهذا هو الواقع فى ما أخذناه ونأخذه على شعر شوقى وهو بخاصة شأننا فى الحكم على قصيدته هذه التى رأينا بعض المفتونين يجلها عن الانتقاد ويعجب من أن تعاب ، وهى لو يفقه من القصائد التى يصاب منها المذهب العتيق فى مقـاتله والشواهد التى يبحث عنهـا لابراز مآخذه . وسنسـتعرضـها على عيـوب ذلك المذهب فنبين مواقعهـا منها حتى يكون لمن قـصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الأول فيها .

فالعيوب المعنوية التى يكثر وقوع شوقى وأضـرابه فيها عديدة مختلفة الشـيات والمداخل ، ولكن أشـهـرها وأقربهـا إلى الظهـور وأجمـعهـا لأغلاطهم عيوب أربعة وهى بالإيجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر - وهذه العيوب هى التى صيرتهم أبعد عن الشعر

الحقيقى الرفيع المترجم عن النفس الإنسانية فى أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجى عن المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقول ماكولى عن نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الآنفة أثر ظاهر فى هذه القصيدة قد لا تجده فى غيرها من القصائد الا مزويا أو دقيقا عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار أن من نقائص الشعر مالا يمنع أن يلمح له رواء معجب يستهوى البسطاء بل ربما زادته جمالا فى الظاهر كالحلى المزيفة فانها فى الغالب أجمل من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة غالية .

(١) التفكك

فأما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة إذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافى المتشابهة أكبر ومن أن تحصى فإذا اعتبرنا التشابه فى الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة إلى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو مالا يجوز . ولتوفيه البيان نقول أن القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته

ولا يغني عنه غيره في موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة . أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدته وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين فانك تراهم يلائمون بين الوان الخرز واقداره في تنسيق عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا الا حيث تنزل بهم عماية الوحشية إلى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية في الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها فاعلم أنه ألفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد أو شعور كامل الحياة بل هو كامشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كأجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف وأجهزة ، وكلما استفل الشئ في مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها في اللون والتركيب صالحة لأن تحل في أى مكان من البنية التى هى فيها . فإذا أرتقيت إلى النبات ألفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه في أشرف المخلوقات وأحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى في أجناس الناس كما تتمشى في أنواع المخلوقات ومصداق ذلك ما نشاهده من تقارب الأقوام المتأخرة في السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جيمعا على الناظر وهى حقيقة فطنت إليها قبائل البدو بالبداهة ولمسها البحترى في هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة		حص الحى متشابهو الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربه		بعمان أصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت أقدارا وملامح وبدوات وأطوارا حتى ليوشك أن يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الذهن ونزعته. ونقترب مما نحن بصدده فنقول أنك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الأدب ألفيت تشابها فى الأسلوب والموضوع والمشرب وتماثلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الأسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات ، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر أعضائها فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها أنفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكرة وجفاف السليقة فكأنما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صامد متصل الأشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة ، أو كأنما هى ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة .

وإذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه فى قمته ، لا كالبناء المقسم الذى ينبئك النظر إليه عن هندسته وسكانه ومزاياه .

وهذه كومة الرمل التى يسميها شوقى قصيدة فى رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء أن يضعها على أى وضع فهل يراها تعود إلا كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء الا أحقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع أطرادها أو يختلف مجراها . وتقريرا لذلك نأتى هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الأول ليقرأها القارئ المرتاب ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على فضاء نضيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها إلا أنها كما نرجو لا تضيع عبثا - قال شوقى أصلحه الله :

١- المشرقان عليك ينتحبان
قاصيهما فى مأتم والدانى

٢- يا خادم الاسلام أجر مجاهد
فى الله من خلد ومن رضوان

٣- لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى
فى الزائرين وروع الحرمان

٤- السكة الكبرى حيال رباهما
منكوسة الاعلام والقضبان
٥- لم تألها عند الشدائد خدمة
فى الله والمختار والسلطان
٦- يا ليت مكة والمدينة والمدينة فازتا
فى المحلفين بصوتك الرنان
٧- ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحبان
٨- جار التراب وأنت أكرم راحل
ماذا لقيت من الوجود الفانى
٩- أبكى صباك ولا أعاتب من جنى
هذا عليه كرامة للجانى
١٠- يتساءلون أبا السلال قضيت أم
بالقلب أم هل مت بالسرطان
١١- الله يشهد أن موتك بالحجا
والجد والأقدام والعرفان
١٢- أن كان للاخلاق ركن قائم
فى هذه الدنيا فأنت البانى

١٣- بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
هل فيه آمال لنا وأمانى
١٤- وجدانك الحى المقيم على المدى
ولرب حى ميت الوجدان
١٥- الناس جار فى الحياة لغاية
ومضلل يجرى بغير عنان
١٦- والخلد فى الدنيا وليس بهين
عليا المناصب لم تتح لجبان
١٧- فلو أن رسل الله قد جبنوا لما
ماتوا على دين ولا ايمان
١٨- المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الأخلاق كالعنوان
١٩- وأحب من طول الحياة بذلة
قصر يريك تقاصر الأقران
٢٠- دقات قلب المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثوان
٢١- فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثان

٢٢- للمــرء فى الدنيــا وجم شـئـونهــا

مـــا شـــاء من ربح ومن خـــســـران

٢٣- فـــهى الفـضـــاء لـراغب مـتـطلع

وهـى المضـــــــيق لمؤثر الســلوان

٢٤- النـاس غــاد فـى الشـــقـــاء ورائح

يشـــقى له الرحـــمـــاء وهو الهـــانى

٢٥- ومــنــعــم لــم يــلــق إلا لــذة

فى طيــهـــا شــجـن من الأشــجـــان

٢٦- فـاصبـر على نـعم الحيـاة وبؤسـهـا

نعـــمى الحيـــاة وبؤســـهـــا ســـيـــان

٢٧- يا طـاهر الغـــدوات والروحـــات

والخطرات والأســـــرار والاعـــــلان

٢٨- هل قــام قـبلك فى المدائن فـاتحــا

غــــاز بغـــيـــــر مــــهند وسنان

٢٩- يدعــو إلى الـعلم الشـريف وعنده

أن العلوم دعـــائم العـــمـــــران

٣٠- لفـــوك فى عـلم البـــلاد منكــــا

جــزع الـهـلال على فـــتى الفـتـــيـــان

٣١- ما أحــمـر من خـجل ولا مـن ريبـة
لـكنمـــــــا يبكى بـدمع قـــــان
٣٢- يزجـون نعشك فـى السناء وفى السنى
فكـأنما فـى نعـــشـك القـــمـــران
٣٣- وكـــأنه نـعش الحـــسين بكـربلا
يـخـــتـــال بـين بكـى وبـين حنـان
٣٤- فـى ذمـــــــة الله الـكـريم وبـره
مـــا ضـم من عـــرف ومن احـــسـان
٣٥- ومـشى جـلال الموت وهـو حـقـيـقـة
وجـــلالك المصــدوق يلـتـــقـيــان
٣٦- شـقت لمنظرك الجـيـوب عـقـائل
وبكـتك بـالدمـع الهـــتـــون غـــوان
٣٧- والخلق حـولك خاشـعون كـعـهـدهم
إذ ينصـــتـــون لخطـبـــة وبيـــان
٣٨- يتـــســـاءلون بـأى قلـب ترتـقى
بـعـــد المـنـابـر أم بـأى لســـــان
٣٩- فـلو أن أوطـانا تـصـــور هـيكـلا
دفـنـوك بـين جـــــوانح الأوطـان

٤٠- أو كـان يحمل فـى الجوانح مـيت

حـملوك فى الأسـماع والأجـفـان

٤١- أو صيغ من غـرر الفـضـائل والعلى

كـفن لـبـست أحـاسن الأكـفـان

٤٢- أو كـان لـلذكـر الكريم بقـيـة

لـم تأت بـعـد رثيت فـى القـرآن

٤٣- ولقـد نظرتك والردى بك مـحـدق

والداء مـلء مـعـالـم الجـثـمـان

٤٤- يبـغى ويطغى والطبـيـب مـضلل

قنط وسـاعـات الرحـيـل دوان

٤٥- ونواظر العـواد عنك أمـالـهـا

دمع تـعـالـج كـتـمـه وتعـانى

٤٦- تملى وتكتب والمشـاغـل جـمـة

ويداك فـى القـرطاس ترتجـفـان

٤٧- فـهـششت لى حتى كـأنك عـائدى

وأنا الـذى هد السـقـام كـيـانى

٤٨- ورأيت كـيف تموت آسـاد الشـرى

وعـرفت كيف مصـارع الشـجـعـان

٤٩- ووجدت فى ذاك الخيال عزائمها

ما للمنون بدكهن يدان

٥٠- وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه

من أدمعى وسرائرى وجنانى

٥١- لولا مغالبة الشجون لخاطرى

لنظمت فيك يتيمة الأزمان

٥٢- وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت

فتعود سيرتها من الدوران

٥٣- قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى

وتجل فوق النيرات مكانى

٥٤- ماذا دهانى يوم بنت فعقنى

فيك القريض وخاننى امكانى

٥٥- هون عليك فلا شمات بميت

أن المنية غاية الإنسان

٥٦- من للحسود بميتة بلغتها

عزت على كسرى انوشروان

٥٧- عوفيت من حرب الحياة وحربها

فهل استرحت أم استراح الشانى

٥٨- يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هذا ثرى مصر فنم بأمان
٥٩- أخلع على مصر شبابك عاليا
والبس شباب الحور والولدان
٦٠- فلعل مصرا من شبابك ترتدى
مجدا تتيه به على البلدان
٦١- فلو أن بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان
٦٢- علمت شبان المدائن والقرى
كيف الحياة تكون فى الشبان
٦٣- مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر أبر على عظامك حان
٦٤- أقسمت أنك فى التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

*

كذلك انتظمت لشوقى مرثاة فى مصطفى كامل وسماها قصيدة لأنها لم تأب أن تستقر فى قرطاس واحد ، ولقد كان أحرى بها أن تسمى

أربعة وستين بيتا منظومة فى كل شئ أو فى لا شئ . فاعتبرها أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها وعادت أحسن نسقا وأقرب نظما – قال شوقى أيضا :

١- المشرقان عليك ينتحبان

قاصيهما فى مأتم والدانى

١٤- وجدانك الحى المقيم على المدى

ولرب حى ميت الوجدان

٢١- فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها

فالذكر للإنسان عمر ثان

٦٤- أقسمت أنك فى التراب طهارة

ملك يهاب سؤاله الملكان

٢٧- يا طاهر الغدوات والروحات

والخطرات والأسرار والاعلان

٩- أبكى صباك ولا أعاتب من جنى

هذا عليه كرامة للجانى

١٩- وأحب من طول الحياة بذلة

قصر يريك تقاصر الأقران

٥٦- من للحسود بميتة بلغتها
عزت على كسرى انوشروان
٣٦- شقت لمنظرك الجيوب عقائل
وبكتك بالدمع الهتون غوان
٥٥- هون عليك فلا شمات بميت
أن المنية غاية الإنسان
٢٠- دقات قلب المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثوان
١٣- بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
هل فيه آمال لنا وأمانى
٦٠- فلعل مصرا من شبابك ترتدى
مجدا تتيه به على البلدان
٤٣- ولقد نظرتك والردى بك محدق
والداء ملء معالم الجثمان
٤٤- يبغى ويطغى والطبيب مضلل
قنط وساعات الرحيل دوان
٤٩- ووجدت فى ذاك الخيال عزائما
ما للمنون بدكهن يدان

٦١- فلو أن بالهــرمين من عــزمــاته

بعض المضــاء تحــرك الهــرمــان

٤٦- تملى وتكتب والمشــاغل جـمــة

ويداك فى القــرطاس ترتجــفــان

٤٥- ونواظر العــواد عنك أمــالهــا

دمع تعــالج كــتــمــه وتعــانى

٤٧- فهشــشت لى حتى كأنك عــائدى

وأنا الذى هد الســقــام كــيــانى

٥٠- وجعلت تسـألنى الرثاء فهاكـه

من أدمــعى وســرائرى وجنانى

٤٨- ورأيت كيف يموت آساد الشرى

وعـرفت كيف مصارع الشجعان

٥٤- مــاذا دهانى يوم بنت فـعــقــنى

فــيك القــريض وخــاننى امكانى

٥٢- وأنا الذى أرثى الشمــوس إذا هوت

فــتــعــود ســيــرتهــا من الدوران

٥٣- قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى

وتجل فــوق النيــرات مكانى

٥١- لولا مغالبة الشجون لخاطرى

لنظمت فيك يتيمة الأزمان

*

٥٨- يا صب مصر ويا شهيد غرامها

هذا ثرى مصر فنم بأمان

٦٣- مصر الأسيفة ريفها وصعيدها

قبر أبر على عظامك حان

٣٤- فى ذمة الله الكريم وبره

ما ضم من عرف ومن احسان

٤١- لو صيغ من غرر الفضائل والعلى

كفن لبست أحاسن الأكفان

٤٠- لو كان يحمل فى الجوانح ميت

حملوك فى الأسماع والأجفان

٤٢- ولو أن أوطانا تصور هيكلا

دفنوك بين جوانح الأوطان

٤٢- أو كان للذكر الكريم بقية

لم تأت بعد رثيت فى القرآن

٢- يا خـادم الاسـلام أجـر مـجـاهد

في الله من خلد ومن رضوان

٦- يا ليت مكة والمدينة فازتا

في المحلفين بصوتك الرنان

٧- ليرى الأواخر يومذاك ويسمعوا

ما غاب عن قس وعن سحبان

٣- لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى

في الزائرين وروع الحرمان

٤- السكة الكبرى حيال رباهما

منكوسة الاعلام والقضبان

*

٨- جار التراب وأنت أكرم راحل

ماذا لقيت من الوجود الفاني

٥٧- عوفيت من حرب الحياة وحربها

فهل استرحت أم استراح الشاني

١٠- يتساءلون أبا السلال قضيت أم

بالقلب أم هل مت بالسرطان

١١- الله يشهد أن موتك بالحجى
والجد والأقدام والعرفان
١٨- المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الأخلاق كالعنوان
١٢- أن كان للاخلاق ركن قائم
فى هذه الدنيا فأنت البانى
٢٨- هل قام قبلك فى المدائن فاتحا
غاز بغير مهند وسنان
٢٠- دقات قبل المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثوان
٢٢- علمت شبان المدائن والقرى
كيف الحياة تكون فى الشبان
١٦- والخلد فى الدنيا وليس بهين
عليا المناصب لم تنح لجبان
٢٣- فهى الفضاء لراغب متطلع
وهى المضيق لمؤثر السلوان
١٧- ولو أن رسل الله قد جبنوا
لما ماتوا على دين ولا ايمان

٣٠- لفــوك فى عـلم البــلاد منكســا

جــزع الـهــلال على فــتى الفــتيــان

٣١- مـا أحـــمـر من خـجل ولا مـن ريبـة

لـكـنـمــــــا يـبـكـى بـدمـع قـــــان

٣٥- ومـشى جـلال الموت وهـو حـقـيـقـة

وجــلالك المصـــدوق يلـتـــقـيـــان

٣٢- يزجـون نعشك فـى السناء وفى السنى

فكـأنما فـى نعـــشـك القـــمــــران

٣٣- وكــــأنه نـعش الحـــسين بكـربلا

يـخــــتــــــال بـين بكـى وبـين حنـان

٣٧- والخلق حـولك خاشـعون كـعهـدهم

إذ ينصـــتــــون لخطبـــة وبيـــان

٣٨- يتــــســـــاءلون بـأى قلـب ترتـقى

بعــــــد المنـابـر أم بـأى لســـــان

٥٩- أخلع على مــصـر شبـابك حــاليـا

والبـس شـــبـــــاب الحـــور والـولدان

٥- لم تـألهــا عـند الشــدائد خــدمـــة

. فـى الله والمخــــتــــــار والسـلطـان

١٥- الناس جار فى الحياة لغاية
ومضلل يجرى بغير عنان

٢٥- ومنعم لم يلق إلا لذة
فى طيها شجن من الأشجان

٢٢- للمرء فى الدنيا وجم شئونها
ما شاء من ربح ومن خسران

٢٤- الناس غاد فى الشقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهانى

٢٦- فاصبر على نعم الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

فانظ أيها القارئ إلى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت ؟ على أننا قد تناولنا الأبيات عفوا كما بدرت لنا ولم نتحر الأقصاء فى الترتيب . ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التى تعلق الاسم على الأسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التى تصل الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكد يجتمع بيت من القصيدة على بيت ، وإنما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارئ نفسه : هل قرأ فى الشعر أشد تفككا منها ؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقى وهل هى نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد أو تقطرات من عقل

ناضب ينبض بالقطـرة بعد القطرة بخـلع الضرس ويخلع الـنفس فتـأتى كالرشاش لا يتولد منه إلا الوحل واليبس ؟

وقبل أن نتحـول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحـدة الفنية ننبه من يستبهم عليه الأمر إلى أننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الأقيسة المنطقية ولا تقسيـما كتقسيم المـسائل الرياضية وأنما نريد أن يشع الخاطر فى القـصيدة ولا ينفرد كل بيت فتكون كما أسلفنا بالأشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا فى هذه القصيدة .

(٢) الاحالة

أما الاحالة فهى فساد المعنى وهى ضـروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبـالغة ومخالفة الحـقائق ومنها الخروج بالفكر عن الـعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهدها كثيرة فى هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبـرى حيال ربـاهما منكوسـة الاعلام والقـضبـان

وقضـبان السكك الحـديدية لا تنكس لأنها لا تقـام على أرجل وإنما تطرح على الأرض كـمـا يعلم شـوقى . اللهم إلا إذا ظن أنـها أعـمـدة تلغراف . على أنها لو كـانت مما يقف أو ينكس لما كان فى المعنى طائل إذ ما غناه قول القـائل فى رثاء العظماء آن الجدران أو العمـد مثلا نكست رءوسها لأجله .

ومنه قوله :

ان كـان للاخلاق ركن قـائم   (فى هذه الدنيا) فـأنت البانى

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والأداء أجمعه على طريقته وغمطه لما فهم الناس من الكلام شيئا ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام فى كل لغة ولأى قـصد انما يحتـاج إليه للدلالة على مـعنى معين أو وصف يطابق موصـوفه فإن لم يكن كذلك فـهو وبحران المحمـوم وهتر المجنون سواء ، والشعر إذا لم يصح أن يقال فى انسان معلوم أو صح أن يقال فى كل إنسـان : فى السيـاسى والعـالم والأديب والواعظ والصـانع ، فهـو الهذيان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل؟ أيفهم أنه وحـده هو البانى لكل ركن للأخلاق فى هذه الدنيـا ؟ إذا فماذا يقال عن النبى أن قيل هذا عن الزعيم السياسى ؟

وهل لا يصح حينئـذ أن يقال هذا القول فى قائد الحـرب وفى جوابه الآفـاق وفـى خـطيب المحـافل وفـى التـاجـر الـسـرى والوزير المحنك والمربـى المرشد والمختـرع الحاذق فى كل إنسان بل فى الناس جمـيعا بل فى مـخلوقـات الله وكائناته طرأ من حى ونابت جـامد ؟ فـانه على كل وجه صـرفـته قول خـلا من الصدق والمدلول سـواء أرثيت به حـجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بمذهبه آلاف الملايين منذ الوف السنين .

ولا جرم فان كونفـوشيوس وحده صاحب شريعـة فى قومه ، وهبه

بيـهم الفرد فمـا الصين كل العالم ، وهبهـا كل العالم فمـا كان تاريخ (هـذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعـيما سياسيا يوقظ هـذه الأمة فلو قيل أنه موقظ كل نفس بمصر فـى عصره لما كان هذا حقا إذ كـم فى مصـر من رجل أيقظه كل نفس بمصر فـى عصـره لما كان هذا حـقا إذ كـــم فى مصـر من رجل أيقظه مـا أيقظ مـصطفى نفسـه من الحوادث والعبـر والمعـارف وكم فيها من آناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فإذا زيد على ذلك أنه موقظ كل نفس بمصر فى كل عـصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فـإذا لم يكتف بهذا وقيل عنه إنه موقظ كل الناس من جميع الأمم فى جميع العصور فالأمر شر من اللغو وأقبح من السفه - هذا وما تجاوزنا دائرته من النهـضات السياسية فمـا ظنك إذا خرج القائل من هذه الدائرة إلى دائرة الاصلاح الأخلاقى فزعم أن ليس للأخلاق ركن قام فى هذه الدنيا إلا وهو من بناء رجل ولد فى أواخر القـرن التاسع عشر ، وأنهـا من بنائه قبل مـولده وحيث لـم تخطر له قدم ولم يسـمع لأسمـه صدى ؟

إذن يكون بكم العجماوات خيرا من شعر الآدميين كما قلنا فى فصل مضى .

*

من الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى   هل فيـه آمـال لنا وأمـانى

لو سأل : هل فى قلبك المدفون فى الثرى آمـال لنا وأمانى لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . أما الذى يسأل أن يفتش فلا يـصح أن يسأل هل فى قلبك آمـال وأمانى إلا فى مـعرض التـبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعى : يا هذا الذى يمشى هل أنت حى ؟

ولقد قال حكيم :

تموت مع المرء حـاجـاته   وتبـقى له حـاجـة مـا بقى

فكل من يفرض فيـه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمـال ، بله كبار النفوس وبعيدى الهمم ومنها :

فلو أن رسـل الله قـد جـبنوا لما   مـاتـوا علـى دين ولا ايمـان

الصواب فى إظهـار فضل الشـجاعة أن يقـال أنها لازمة فى أصـغر المطالب وأقرب الغايات كما يقال فى اظهار فضل المال أن الإنسان لا يقدر على أن يشتـرى أبرة بغيره ولا يقـال فى الدلالة على شدة لزومـه وبيان الحاجة إليه أنه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا أن أحقر الناس خليق أن لا يكسب قوته القفار بغير

الشجاعة لكان لقوله معنى ، أما الاستشهاد على قدرها واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس قاطبة أن يقنعوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون إلى الشجاعة. أما أن قيل أن الشاعر يعنى أن الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم روح الله لابد أن يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو أفرغ منه وهل إذا سمعت أيها القارئ رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومتانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا أكنت تظنه يخبرك بشئ يستحق أن ينظم فى بيت شعر ؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقى أن صح أنه يعنى ما افترضناه ومن أحالاته :

فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

*

والذى يقوله الناس – وشوقى منهم إذا شاء – أن فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وأن سعة الرحب تأزم بالطامح المتدفع ، لبعد آماد همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون أن القانع السالى بنفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب !!

فأما القول بأن المطامع تفسح الدنيا والسلوان يحرجها فرأى لا يخطر إلا على فكر كفكر شوقى المقلوب .

ومن هذه الاحالات هذه الفهاهة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها   نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف أما الصبر على نعماها فماذا هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا أن المصائب والخيرات سيان فلا غرابة فى أن يصبر الإنسان على النعمة وأن تبطره المحنة . هكذا يقول شوقى وما أصدقه فأننا لا نرى منحة هى أشبه بالمحنة من هذا الشعر الذى أنعم الله به عليه . ولله فى خلقه شئون .

ويقول :

يزجون نعشك فى السناء وفى السنى

فكأنما فى نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران أثنان فمن كان الثانى فى ذلك النعش ؟!

ولا يقال أن صاحبنا أراد مقابلة السناء السنى بالقمرين لأن السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو أنه قال «كأنما فى نعشك القمر» أو «كأنما فى نعشك الشمس» لما نقص فى الحالتين وصف فى ذينك الوصفين . ولعمرى كيف يكون النعش فى السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى فى النعش ؟؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم إلا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الأفلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر بين الطفل الذى يمدح

كل ما يعرفه بأنه كالسكر فالمدرسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . كذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين أمرئ وامرئ ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف .

ويقول عافاه الله :

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت فتعود سيرتها من الدوران

أى والله ظاهر . لكن الشموس والأقمار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر .

ويقول :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان

ونقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فإذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء أن نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات فى وطنه : أحببت بلدك فنم فى ثراه إذا كان لا يدور بخلد أحد أنه سيدفن فى غيره .

ومن مبالغاه التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو أن بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله أراد المقابلة بين الشباب فى البيت المتقدم والهرمين فى هذا

البيت ونحن ننعى على هذه المبالغة دائما أنها لا تدل على شئ فهب أنه قال :

فلو أن بالقطبين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان

أو قال :

فلو أن بالشطين من عزماته بعض المضاء تحرك الشطان

إلى آخر المثنيات التى تسكن ولا تتحرك . ثم هب أنه قال البيت فى رثاء مصطفى أو رثاء باستور أو فى رثاء ابن زريق أو مشهور كائنا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟

ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حان

*

مصر أيها القارئ – ولا تخطىء فتحسبها القاهرة المعزية فانها مصر بريفها وصعيدها – مصر كلها ما هى إلا قبر واحد . فالله در شاعرها يرثى رجلا أحيا نهضة بلاده فيجعلها قبرا ، ولا ضرورة وليدل على ماذا ؟ لا شئ .

وقد أجتزانا بهذه الأبيات ، لا لأنها كل ما فى القصيدة من شواهد

الاحالة وأعوجاج الطبع ، بل لأنها ذات طعم وأن كان رديئا ممجوجا وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيـقة أن القصيدة بجملتها بنت الاحالة والسقط فإذا سلم منها بيت من النقد فـانما أكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

*

(٣) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعانى وأيسره على المقلد الاقتباس المقيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعـد موتك ذكرها ... فـالـذكـر للإنسـان عـمـر ثان

مقتضب من بيت المتنبى :

ذكر الفتـى عمره الثانى وحـاجته ... مـا فاته وفـضول العـيش أشغـال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم ... إذ ينـصــون لخـطبـة وبيــان

شوه فيه معنى أبى الحسن الأنبـارى فوق تشويهه وذاك حين يقول فى رثاء الوزير أبى طاهر الذى صلبه عضد الدولة:

كـأنـك قـائم فـيـهم خطيـبـا ... وكلـهم قـيـام للصـلاة

ونقـول شوهه لأن الخـطيب لا يخطب الناس وهم سـائرون به وأنما يفعل ذلك اللاعبون فى المعارض المتنقلة .

وقوله :

أو كان يحـمل في الجوانـح ميت　　　حـملوك فى الأسمـاع والأجفـان

مأخـوذ من بيت ابن النبيـه فى قصـيدته التى لم تبق صـحيـفة لم تستشهد بمطلعها :

الناس للـمـوت كـخـيل الطراد　　　فـالسـابق الســابق منهـا الجـواد

والبيت هو :

دفنت فى الـتـراب ولو انصــفـوا　　　مـاكنـت إلا فى صـمـيـم الفـؤاد

على أن المعنى مـرذول بلغ من ابتذاله وسـخفـه أن تنظمه «عـوالم» الافـراح فى أغـانيـهـا وحـسب الشـاعر أن لا يـكون أبلغ ولا أرفع من القائلات «أحطك فـى عـينى يا سيدى وأتكحل عليك» وأنه ليقـول كما قلن :

ولو أن لـى علم مـــا فى غـــد　　　خبــأتك فى مـقلتـى من حـذر

وقوله :

أو كـــان للذكـر الحكـيم بقـيــة　　　لم تأت بعــد رثيت فى الـقـرآن

منظور فيه إلى بيت المعرى :

ولو تقدم فى عصر مضى نزلت   فى وصفه معجزات الآى والسور

وهذا البيت :

أو صيغ من غرر الفضائل والعلا   كفن لبست أحاسن الأكفان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ريا حنوطه   ولكنه ذاك الثناء المخلف

فما أضاف شوقى إلى هذه المعانى سوى أنه جعل الأكفان تصاغ وأنه تحذلق فقال :

فلو أن أوطانا تصور هيكلا   دفنوك بين جوانح الأوطان

يريد جسدا : كأنه يحسب أن الأوطان أن لم تصور جسدا لم يدفن الفقيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقى مالا يستحق أن يسرق فهذه شطرته :

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى

أليست هى شطرة الشريف فى أحدى همزياته :

لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة «أن المنيــة غاية الإنســان» هى من قــول الشريف أيضا «أن المنية غاية الأبعاد» وكأن القافـية صدته عن انتهاب الشطرة كلها فعاد إليها فى رثاء فريد إذ قال :

من دنى أو نأى فـان المنايا غاية القرب أو قصارى البعاد

فأتم الغنيمة فى قصيــدتين . وسنعود إلى بيان سرقاته فى فصل على حدة .

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالأعراض دون الجواهر وهو العيب الرابع الذى اخترنا الكلام عليه من عـيوب هذه القصيدة الدالة على أنماط التقليــد ومذاهبه . بيد أن الفـرق بينهما كـالفرق بين الخطأ واللعب والسخف والعــبث ولكل منهمـا سبب يمت به إلى الآخر إذا تشـابها فى الصدور عــن طبع أعوج وعقــل فارغ . وقد يســهل التفطن إلــى الاحالة ولكن التفطن إلى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كمــا يعســر على الأطفال أدراك رزانة الرجــال انظر أيها القــارئ إلى هذا البيت :

دقات قلب المرء قـائلة له أن الحـياة دقـائق وثوان

فانه بيت القصيد فى رأى عشاق شوقى فعلى أى معنى تراه يشتمل ؟ معناه أن السنة أو مـائة السنة التى قد يعـيشهـا الإنسان مؤلفـة من دقائق وثوان ، وهذا هو جـوهر البـيت ، فـهل إذا قـال قـائل أن اليـوم أربع

وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون فى عرف قراء شوقى قد آتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك أنه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هدانا إلى واجب الضن بالحياة – وهنا يبدو للنظر فى قصر المسافة التى يذهبون إليها فى اعجابهم وأن بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . وإلا فلو قورن بين الساعة والقلب أيام كان يقاس الوقت بالساعات المائية أو الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الإنسان سر الحياة ؟

أبهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينظم فى الحياة الإنسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟؟ ولقد قلنا فى نقدنا لرثاء فريد «أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الإنسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها» ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا أن أحدهم لو سمع ناصحا يعظه فى موقف جد – وأى موقف جد أجد من رثاء النابغين ؟؟ – فيناديه يا أخى صن وقتك لأن قلبك ينبض كما تنبض الساعة لأغرب فى الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك فى عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله .

وماذاك إلا لحسبانه أن الهزل جائز فى الشعـر فكاهة وحكمة ، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان !

لفوك فى علم البـلاد منكسـا | جزع الـهلال على فـتى الفتيان
ما أحمـر من خجل ولا من ريبة | لكنمـــا يبـكى بدمـع قـــان

وللعلم جوهر وعرض فـأما الجوهر فهو ما يرمز إليـه من مجد الأمة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قـومية وفرائض وطنية . وأما العرض فهـو نسيجـه ولونه خاصة وليس لهـا قيمـة فيمـا ترفع الأعلام لأجله . فشوقى يولع بهذا العـرض إذا هو نظم فى العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب أنه مـا كان يذكـر لف نعش المرثى بالراية المصـرية لو لم تكن حمراء كى يكون لونهـا دمعا ودمعها دما منزوفـا . وليست هذه هفوة أو فلتة بـدرت منه هنا بل هى دأبه كلما وصف علمـا ، فقـد قال فى وصف الهلال الأحمر :

كـأن مـا أحمـر منه حـول غـرته | دم البـراءة زكى شـيب عـثـمـانا
كـأن ما أبيض فى أثـناء حمـرته | نور الشهيد الـذى قد مات ظمآنا
كـأنه شـفق تسـمـو العيـون له | قـد قلد الأفق يـاقـوتا ومـرجـانا
كـأنه من دم العشـاق مـختـضـب | يشـير حـيث بدا وجـدا وأشجـانا
كـــأنه من جـــمــال رائع وهدى | خـــدود يوسف لما عـف ولهـــانا
كـــأنـه وردة حـــمــراء زاهـيــة | فى الخالد قد فتحت فى كف رضوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة والياقوت والمرجان فى لون الشفق . حتى الدم إذا ذكره يكون خضابا لشيبة أو دم عشاق. فيا للطاقة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدودا من حيث خلق الله له خدين ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس إذ هو قد وصف هلالا أبيض فى أثناء حمرة والهلال الأحمر على عكس ذلك كما يدل أسمه عليه لو أنه تنبه إليه - ومع هذا فانى لا قسم أن صاحبنا رص هذه (الكائنات) فى أبياته الستة ويخيل إليه أنه لو تقدم به الزمن إلى عهد عمر بن الخطاب لقال أشعركم من يقول كأن وكأن لا من يقول من ومن . .

ومن الغباء العجيب أن يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة على نعش بطل من أبطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن أحرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى أن يظن بها الناس الظنون وهى بريئة عفه !! إذ ما الذى يخطر على باله الخجل والريبة فى هذا المقام وهو يرثى الرجل الذى يخاطبه قائلا .

ان كان للأخلاق ركن قائم ... فى هذه الدنيا فانت البانى

ولكنها الغباوة لا تعلم إذا بدأت أين تنتهى بصاحبها !! وليت شعر شوقى إذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟؟ أكان لا يرى للف النعش بها أى معنى لأنها لا تبكى بدمع أحمر ؟؟

تلك آية شوقى ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة. كومة

الرمل كمـا قلنا فى أول المقال . ولقد أتم فـيها امتـساخ الطبائع بمخـالفة الواقع فجـاءت معرضا مـختارا من الأغلاط ، وسـملا مرقعـا من النشوز والاختباط . وما كان يسعه أن يخرج نفـسه خلقا آخر فيأتى بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستـقيم فى أغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه أن يعلم أن السكة الحجارية لم تصل إلى مكة فلا يقول :

لما نعيت إلى الحـجاز مشى الأسى — فى الـزائرين وروع الحــرمــان
السكة الكـبرى حيـال رباهـمـا — منكوسـة الأعـلام والقـضـبـان

والحـرمان فى الحـجاز همـا الحـرم المدنى والحرم المكى وكل قـارئ للصحف ولاسيـما لدن وفاة مصطفى كامل يعـلم أن ليس حيال ربى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هى حتى الساعة .

وكان فى مقدوره أن يعلم أن الحسين لم يشيع فى موكب حاشد كما شيع مصطفى فلا يقول فى وصف نعشه .

وكــأنه نـعش الحــسين بـكربلا — يخـتــــال بين بكى وبـين حنان

وقد رأيناه يغير على قصائد الشريف افـتراه لم يفقه رائتيه التى يقول منها فى مصرع الحسين .

وخـر للمــوت لا كف تـقلبــه — الا بوطئ من الجـرد المحـاضـيـر
كـأن بيض المواضى وهى تنهـبـه — نادر تحكم فـى جـــسم الـنور
تهـابه الوحش أن تدنو لمصـرعـه — وقـد أقـام ثلاثا غـيـر مـقـبـور

وقصة مصرع الحسين مشهور سيارة . ومن العامة من يستظهر خبره ويعلم كيف أنه قاتل حتى أثخن بالجراح وأنه - لا حيا الله قاتليه - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ثم ديس بالخيل ورض جسده واحتز رأسه وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم أرسله إلى يزيد في خبر فاجع لا حاجة إلى تفصيله . وأنى لمن يموت هذه الميتة أن تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه في المواكب !! ولا نقول يختال بين البكاء والحنان فما من أحد ينسب الاختيال إلى النعوش الا من كان نعشا مختالا كهذا الذى لا يميز بين تشييع قتيل إلى قبره وزف عروس إإلى خدرها . فآن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة كل سنة تذكارا لوفاة الحسين فالخطأ أعظم وأقبح لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب فما رأيناهم يحملون نعشا وانما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لأنهم أزكن من شوقى وادرى بما ينبغى أن يذكر به يوم الحسين إذ كانوا يحتلفون بمصره فى ميدان حرب لا بمدفنه فى الثرى .

كان يسعه أن لا يقول ذلك كما كان يسعه أن يسكت ولكنه ألهم أن يستقصى عاهات الشعر ما يتداركه منها ، إذا شاء ، وما لا يتداركه . وأن يجتهد فى ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو فى الحقيقة يكافأ المكافأة التى يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع عنه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال عنه أنه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

*

ولا ندع هذه القصيدة التى ملأها شوقى بما يسـميه حكمة وبما يتسامى بـه إلى مـضاهاة المتنبى ومضـارعة المعـرى قبل أن نكشف عـن غـشاوة يخـدع من قبلها كـثير مـن قراء الشعر الذين يؤمل صلاحـهـم واقتناعهم وأن نـروز تلك البـديهيات وأشـباه البـديهيـات التى يتصنع شـوقى بها الحكمة والرشـد لعله يريحنـا من هبنقياته ويريح نفسـه مـن عبء لا طاقة له به .

فـالحكمة فى الكـلام ضربان : الحكمـة الصـادقة وهى من أصـعب الشعر مرامـا وأبعده مرتقى لا يساس قيادها لغـير طائفة من الناس توحى اليهم الحقـائق من أعماق الطبيعـة فتجرى بها السنتـهم آيات تنفح ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العائرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هى فـصل الخطاب ومفرق الشـبهات تستـوعب فى أحرف معدودات ما لا تزيده الأسفـار الضافية الا شرحا وامتدادا وتسمـعها فتشع فى ذهنك ضيـاءها وتريك كيف يتـقابل العـمق والبساطة ويـأتلف القدم والجدة قـدم الحقيقـة كأثبت ما تجلوها الحيـاة المتقلبة وحـدة النظر الثاقب والنفس الحية التى تطبع كل مرئى بطابعها .

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسـبها مجموعة كذلك منذ الأزل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبـيتى المتنبى اللذين يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

تصفـو الحيـاة لجـاهل أو غـافل ... عـمـا مـضى منهـا ومـا يتـوقع

ولمن يغـالط فى الحـائق نفـسـه ... ويسـومها طلب المحـال فـتطمع

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبه والمغالط نفسه واع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذى قسمه من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انسانا غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع إلى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكأن قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن العبد :

لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول[1] المرخى وثنياه باليد

وهذا أجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتهنة بالأجل .

وطورا تصل طرفى الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحترى :

متى أرت الدنيا نباهة خامل ... فلا ترتقب الا خمول نبيه

وطورا تصدع برأى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز تضرب به العقد المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبى المأثور .

الظلم من شيم النفوس فان تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

أو كقول أبى فراس .

ما كل ما فوق البسيطة كافيا ... فإذا قنعت فكل شئ كافى

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة

---

(١) الطول : حبل يطول للدابة لترعى والثنى الطرف .

فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس .

بغـاث الطيــر أكـثـرها فـراخـا وأم الصــقــر مــقــلات نزور

فليس الشأن كذلك فى كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا فى كل نسج ونتاج .

ويقرب الشـاعر الحكيم المعنى العويص والـفكرة البعيـدة فيوضحـها وضوح المألوفات كما صنع الافوه الاودى بهذا البيت الفذ .

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سـراة إذا جــهــالهــم ســادوا

فقد حـفيت الأقلام بحثا وتنقـيبا فى علوم الاجتـماع وكلت القرائح تدبرا وانعامـا فى شئون الأمم وراقبت الدول على سنن شـتى من الأنظمة والدساتير فمـا خرجت كلها بزبدة أو جـزو لا أصـدق ولا أتم من هذه الحكمة التى أهتدى إليها هذا البـدوى الناشئ فى عصور الجهالة وأنك لا تزن أمة بميزان هذا البيت إلا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هى الحكمة الصادقة وهى كما ترى غير قاصرة على ايراد الحقيقة المسلم بها وانما هى الحقـيقة كما تبـصرها الفطرة الخصيـبة والفطنة النافذة واللسان الـبليغ ، وبغيـر ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مـشاعا لـلدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتذلة أو مغشـوشة معتملة . أشرفها ما كان

من قبـيل تحصيل الحـاصل ، وكلها لا فضل فـيها لقـائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، إذا قارنا بينهـا بين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الغزير ، وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجـير ، وأحمق ممن يحفر البئر على شـاطئ النهـر من يروح ويغدو ينظـم من أشبـاه البـديهيـات تلك النصائح الفاشية التى حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية . «كالعلم نافع والصدق منج والبركة فى البكور واحترام الأستاذ تتقدم وفى العجلة الندامة وفى التأنى السـلامة» ومـا إلى هذه النصائح والأمـثال والحكم - ينظمـها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها .

لى دولة الشعر دون الـعصر وائلة | مفاخرى حكمى فـيها وأمثالى !!

فهل يدرى القـارئ من صاحب الحكم والأمـثال الفـخور ؟؟ أنه هو شوقى، ثم هل يدرى ما حكمه وأمثاله التى استتبت له بها دولة الشعر ؟؟ هذه هى :

عليكم لواء العـلم فالـفوز تحـتـه | وليس إذا الاعـلام خانت بخـذال
والعلم فى فـضله أو فى مفـاخره | ركن الممالك صدر الدولة الحالى
يقـل للعلـم عند الـعـارفـين به | ما تقـدر النفس من حب وإجلال

*

بالعلم (تمتلك) الدنيـا ونضرتـها | ولا نصـيـب من الدنيـا لجـهـال

فليقـارن القارئ بين هذه المفـاخرة وبين مفـاخر التمـرين الأول نحو «العلم نور . من عاشـر العلماء وقر . تعلم الـعلم لحفظ الدرس . حلى النساء الـذهب وحلى الرجال الأدب» وليسـأل نفسـه ماذا زاد عليـها ملك الشعـر المتفرد بدولته وأى مـيسم يبدو عليهـا من مياسم نفسـه وماذا من وحى الشاعرية والهام البـصيرة ونهية العبقرية وأصـالتها ؟؟ أليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟؟

ومن أركان ملكه أعزه الله هذه الجمل المركبـة من ست كلمات فأكثر – فليتلق الوحى أناس حجبوا عن صفاء الشاعرية وليستفيدوا :

المحـــسنون هـم اللبـــا ... ب وســائر الـناس النفـاية
أن القـــضـــاء إذا رمى ... دك القـــواعـــد مـن ثبـــير
والمال لا تجنى ثمـــار رؤســه ... حتى يصيب من الرءووس مدبرا
الجـــسد غـــاية كـل لاه لاعب ... عنـد المنيـــة يجـزع المفـــراح
سر فى الهواء ولذ بناصية السهى ... الموت لا يخـفى عليــه سبــيل
فلم أر غـيــر حكم الله حكمــا ... ولـــم أر دون بـــاب الله بـــابـــا
وأن البـــر أبقى فـى حـــيـــاة ... وأبقى بـعـد صـاحـبـه وثابا
ومن يعـدل بحـب الله شيـئـا ... كـحب المال ضـل هوى وخـابا
ومـا الرزق مـجـتنب حـرفـة ... إذ الحظ لم يهـجـر المحتـرف
مـا الدين إلا تراث الناس قـبلكم ... كل امـــرئ لأبيـــه تابع تال
ومن العـقـول جـداول وجـلامـد ... ومن النـفـوس حـرائـر وامـاء

أرم النصيحة غير هائب وقعها ليس الشجاع الرأى مثل جبانه

ولعمرى لقد كانوا يقصون علينا ونحن أطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمال وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال واحدة فى أثر واحدة فيفهمه متئدا أنه: «أن آل لك حد الراكب مثل الماشى أول له بتفشر . وأن آل لك حد الغنى مثل الفقير أول له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى أجرة «شيلة» حتى رأى شوقى أن يسمعنا نظما «أن آل لك حد الشجاع مثل الجبان أول له بتفشر» فآمنا بخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية »»

وهل علم أحد أن المسافر إذا آب فقد آب قبل أن يقول شوقى :

وكل مسافر سيؤب يوما إذا رزق السلامة والايابا

أم علموا الحق حتى أخبرهم به مستغربا جهلهم سائلا آياهم :

أليس الحق أن العيش فان وأن الحى غايته الممات

أليس كذلك أم ماذا بالله ؟؟

أم حكم أحد الأحلام إلا حين علموا منه أن :

الحق أبلج كالصباح لناظر لو أن قوما حكموا الأحلاما

*

ومن أمثلة حكمته المغشوشة المعتملة قوله :

لئن تمشى البلى تحت التـراب به لا يؤكل الـليث ألا وهو أشـلاء

والبيت من قصيدة فى شكسبير . ومعناه أن جثة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها - أى أنه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى أبلاها ولم يتلفها حتى أتلفها ولم تتفتت هى حتى تفتت . مهابة واجلالا !! . . وأنه لما أكلها أكلها ولكن بعد تقسيمها كما أن الأسد لا يؤكل إلا عضوا عضوا . .

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والأرض والسماء ، المحسن إلى واحد من رعاياه بالتقدير والرثاء ، المنعم عليهم بالذكر والإيماء . . تصفيق متواصل . . لا بل ضحك تتجاوب به الأصداء ، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر وأمير الشعراء .

فياهذا . أن جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لأنها فى الحياة جسد تفوقه فى الحسن والقوة أجساد كثيرة . وهى فى الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الأحياء من أكملها إلى أدناها . ولو جاز أن يعظم أحد بأن يقال أن الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق بأبطال الحروب إذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على أقرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبى يقول فى أبى شجاع .

من لا تشابهه الأحياء في شيم   أمسى تشابهه الأموات في الرمم

وهو من نعلم مسحضا الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحجى فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى أنه لا معنى لأن يقال أن البلى تهيب أن يتمشى فيه إلا بعد تقسيمه لأن تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل إلا هو واشلاء لأن الشأن كذلك في كل مأكول فالفأر أيضا لا يؤكل إلا وهو أشلاء والدجاجة لا تؤكل إلا وهي أشلاء بل حتى الأرز لا يؤكل إلا وهو أشلاء ممضوغة وما من شئ يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جميع الأكلين . وصاحبنا يرثي شاعرا فيخلط هذا الخلط فعافاه الله أي نوع من أنواع العظمة يفقهه أن كان لا يفقه العظمة التي يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟؟ وأين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء إذا صح فيه فانه يصح في كل حيوان ؟؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض يتزل بالحكمة إليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمة أن كنت فهم   أن عزرائيل في حلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل   من توقاه أتقى نصف العلل
اتخذ سكناك في طلق الجواء   بين شمس ونبات وهواء
خيمة في البيد خير من قصور   تبخل الشمس عليها بالمرور

وتقول : أن كانت هـذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كـاتب «احترس من النشـالين» و «أن أردت النزول أطلب من الكمـسارى توقـيف القطر» نابغة يستملى الحكمة ويستمد وحى الشعر ويرتجل البلاغة ؟؟

وتكميلا للبيان المتقـدم نورد هنا أبياتا يجوز أن يكون معناها مطروقا شائعـا ويجوز أن يكون من جـوامع الكلم ليتبين كـيف يتناولها الشـاعر المطبوع فينفث فيـها حياته وكيف تعن للنظام المقلد كـما هى ونختارها من مـعـان ورد مثلهـا فى شـعر المتنبى الذى يقـتـفى شـوقى أثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشـقـة سـاد النـاس كلهم	الجـود يـفـقـر والأقـدام قـتـال
ألف هذا الهـواء أوقع فى الأنفـ	ـس أن الحـمـام مـر المذاق
من أطاق التـمـاس شئ غـلابا	واغـتـصابـا لم يلتـمسـه سؤالا
من يهن يـسـهل الـهـوان عليـه	مـا لجـرح بميت ايلام
لا يعـجبن مضيـمـا حـسن بزته	وهل تروق دفـينا جـودة الكفن

فهـذه أبيات من رائع الحكمة تحـمل فى طواياها حجة الطبع الدامـغة وآية الفطنة البـالغـة ، وهى قد كـان يمكنك أن تقع لشـوقى من ذخيـرة الأحاديث المشاعة فتسمعـها منه كعادته فى نقل هذه الأحاديث منظومة فإذا هى مثـلا : (الجودة مـفقرة والأقـدام مقتلة . الحـمام مـر المذاق . القوى مغـتصب . من هان سـهل عليه الهـوان . لا يزين الذليل حسـن البزة) وهكذا عهدنا الأمـثال العامة فإذا شئت أن تزن الحكمـتين بميزان الصحين

فكلاهما صحيح ، ولكن ليست الصحة الواقعية هى ما نطلب من النفس الملهمة والطبيعة المشرقة والسريرة العميقة وأنما المصدر الذى تبجست منه والشخصية التى طبعتها بصورتها والقلب الذى خرجت من لدنه والحجة التى صيرتها مقنعة شافية هى بغيتنا من نجوى الالهام وهى التى يرتوى منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبى «لولا المشقة ساد الناس كلهم» ثم يتمم المعنى لأن هذه الشطرة التى لا تزيد البيت صحة تزيده حياة وتنبئنا وحدها بأن فى البيت حقيقة أقرب إلينا وحجة ألصق بنا وثمرة أجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التى تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بأنها «ألف هذا الهواء» فهل ترى أصدق من هذا التعبير !! أليس المتنبى قد لمس به سر كل تركيب فى هذه الموجودات التى ليس كيانها الاعادة تأنفها زمنا ثم تتبدلها ؟؟ ومثل ذلك يقال فى بقية الأبيات .

وصفوة القول أن الحكمة المبتذلة أيسر ما يتعاطاه النظامون لأنها صوغ متاع مشاع على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية مساسا ولن يقاربوها ولا اختلاسا . لأنهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس فى بعض أقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلائها فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين أن أرقى ما يرتقون إليه أن يأتون بكلمة مقبولة فى شئون المعيشة وفرق بعيد

وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فأما الأولى فبنت المران والمكابدة تقرأ آلافا من أمثالها فى كتب اللياقة ونصائح «أياك وحذار عليك» وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمرة التفوق فى شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات الأكوان وسريرة الإنسان ومن ينابيعها العقائد والأديان وتنبثق روح الرشد والبيان . الأولى لون من ألوان البيئة المكتسبة والثانية قبس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما أتفقت الحكمة المطبوعة لمن لا شك فى غلبة الصناعة عليه كالحريرى على ما أذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا   غير أن الشباك مختلفات

ولكنها فلتات لا يقاس عليها .

ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى فظن أنه سقط على كنز وطار به كأنه لا يصدق أنه له أو كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو .

وأنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال :

وأنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فان تولت مضوا فى أثرها قدما

ثم كرر أيضا فى قوله :

وليس بعامر بنيان قوم   إذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره إذ يقول :

ملك على الأخلاق كان بناؤه	من نحت أولكم ومن صوانه

وكرره فى نشيده وفى قصائد أخرى وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل أن كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغى إليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الأمم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الأولية .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس فى بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب	بقر تمشى ولها ذنب
لا تغضب يوما أن شتمت	والناس إذا شتموا غضبوا

إلى أن يقول :

الناقة لا منقار لها	والوزة ليس لها قتب

وكثيرا فى قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها أنها سخيفة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يتسأثر بدولة الحكم والأمثال .

وقلنا أن كان للبيت مدلول ، لأن البيت فى الحقيقة لا مدلول له .

فلو أنك حذفت كلمة الأخلاق وجعلت مكانها أصفارا لما نقص من معناه شئ . لأن هذه الكلمة لا تؤدى معنى محـدودا فى الذهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصـدق والسخاء وحسن المعـاشرة والوداعة والحلم ، وقـد يفهم منهـا نقيض ذلك من الطبـاع كالعناد والمراءاة والدهاء والبـطش وهو ما يفهم أحـيانا من كلام الأفـرنج حين يصفون رجـلا بأنه من ذوى الطبائع البارزة والحـيوية المتينة فـأى المعنيين يقصـد شوقى ؟؟ أن من الأمم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهى مع ذلك من تأصل مـادة الحياة فـيها وأحـتوائها علـى بواعث القوة والسيـادة بحيث لا يخشى عليـها الانقراض العاجل أو البـوار . والتاريخ غاص بسيـر هذه الأمم . وأن منها لما تحمد سجاياه ثم لا تلفـيه من القوة على نصيب وافر فليقل لنا شوقى ما غناه بيته أن كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو إسرائيل .

ولقـد أضحكنا مـرة أحد الشـراثرة الذين يتلقـفون من الكلام مـا لا يفقهون فقال لنا أن البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس وأن فى ذيوع بيت شوقى لدليلا على قيمـته . فقلت له يا صاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردى .

لا تقل أصلى وفـصلى أبدا   أنما أصل الفتى ما قد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمته فهنيئا لنا !! أننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئا للإنسانية فان الشمس لا تطلع إلا على الحكماء من أبنائها .

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الأستار ، وبقبر النبى المختار . أقسم بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسينى والضريح الزينبى ومقام السيد البدوى ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما أن دفنوا بالأمس الا نيرة .

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الأقسام استهل شوقى رثاءه للأميرة المحسنة فاطمة بنت إسماعيل . وهى منثور قوله :

حلفت بالمستترة ... والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء فى الـ ... ـحظائر المنورة
مراقد السلالة الطـ ... ـيبة المطهرة
ما انزلوا إلى الثرى ... بالأمس الا نيرة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج إلى قسم لأقسمت له بكل قبلة ومقام ، وبكل نبى وأمام ، أنه لنسيج وحدة فى فكاهة الرثاء ، أن كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد أرانا شوقى فى مراثيه أجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكى من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزح ، ويقترن العبث بالمدح - أفرأيت أحدا قط يقسم

لك على صدقه فى تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى التكذيب أو يتقى أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة غير شوقى ؟؟ وإذا أطرد هذا فى جميع شعره فلم لا نحسن الظن ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد فى بابه ونتخذ له اسما فى أصول البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا أو اسما آخر مقبولا لديه أن لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وأنها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده فى قصائده جميعا وفى أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم أنها ليست بفلتة نظم أو هفوة خاطر ولكنها أصول يرعاها وأسوم يعيها ولا ينساها . وإلا فلو كان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته فى مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه إلى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو ... د والوفود المحضره
وكل دمع كذب ... ولوعة مزورة

إلا أن الأمر بين لمن ينصفون . . . فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم فأشعرنا الريب وأتهم نفسه فى ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وأنه لم يبدر منه جهلا بفنون الرثاء وانما تفننا واختراعا لم يسبق إليه ، ونرجو أن لا يبارى فيه

. . . فأمـا أن يسمى هذا الاختـراع الجديد رثاء كـما عـهدنا الرثاء القديم فهذا غـبن لشـاعرنا وتسمية للأشـياء بغير أسمـائها . فلابد أذن من أن ينتـقى لـه اسـم مبـتكر طريف وعليه هـو تحريـر قواعـده وضبط أصوله ورسـم نماذجه .

*

عجيب والله أمر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ أشبه بالتعمد ولا توقرا أقرب إلى المجـانة من هذائه فى رثائه . ومـا التبس الهـزل بالاحلال قط التباسـهما فى تأبينه وبكائه . فـما كان أعناه عن الحلف ومبـرات الأميرة أشهر من أن يرتاب فـيها أو يتنازع عليها ؟؟ وهبهـا لم تكن كذلك فهل جرت العـادة أن تؤيد المآثر إذا لم يصدقهـا الناس بالإيمان أو البراهين فى قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا ونسأله : ما باله يفترض أن الناس تبكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضـرورى هذا ليقول بعده أن الدموع الكاذبة لا تغنى عنها وأنه .

لا ينفـع الميـت ســـــوى صــالحــة مــدخـــرة

أيقول ذلك لأن الدموع إذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت وأغنته عن الصالحة المدخرة ؟؟ فإذا كان التباكى كالبكاء فى هذا المعنى فلم هذا السخف الذى يغض من المبكية والباكين وليس له من جدوى ؟؟

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا أننا نريد أن يلمس ضعف تمييز شوقى« عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا أننا سمعنا بيتين منها يرددان فى معرض الاستحسان فأحببنا أن نسمح الرغو عن محضهما لمن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الأول وهو .

فاطم من يولد يمت　　　　المهد جسر المقبرة

أعجبهم منه «جسر المقبرة» وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين إليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيا إلى غيرها　　　　فانما الدنيا لهم معبر

وفصلة المعرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول　　　　وثان ، وفقد المرء أن يعبر الجسر

وهوو أوضح وأوجز فى قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة المنية وأعلم　　　　انما الشيب للمنية جسر

فالذى صنعه شوقى هو أنه سرقه وشوهه كعادته لأنه جعل المرء يخرج من المهد إلى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم أطفالا !! والصحيح أن المهد أول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته .

والبيت الثانى أو هو بيت القصيدة فى رأيهم قوله :

يلفظها حنظلة كانت بفيه سكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا أن يمتدح كل بيت فى القصيدة خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الأذواق وانتكاسها . فقد دل به شوقى على سقم تعبيره وأراد أن يقول أن المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لأنه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان إليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو أنه قال :

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تأفف الإنسان من الحياة حتى إذا أدركه الموت حلا مذاقها لديه وكره أن يلفظها كأنها «السكرة» !! ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشى على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوسا . .

ومن ترهات شوقى التى يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكل نفس فى غد ميتة فمنشرة

فالنفوس لا تموت فى غد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى أمس وأول من أمس وقبل ذلك بآلاف السنين وهى تموت اليوم بل الساعة .

ولكن الرجل اشتهى أن يقول : أن كل نفس تموت منشرة غدا - فخانة الاداء وخذلته العبارة وهى لو استقامت له لما جاء بطائل .

وأما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين أثباتها وانتقادها وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقى فلا نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحصباء ، والشعر إذا تساوى فيه النقد والأغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ما هذا يا أبا عمرو ؟؟

مصطفى أفندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يتريث دونهـا الحصفاء أحيانا وكثيرا ما يخطئون السداد بتريثهم وطول أناتهم . وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أوجله إذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينتق الحافة عند من ليس يكرثهم أن يخدعوا به . بيد أن الاعتساف إذا كان رائده الخرق فى الرأى وشيك أن يوقع صاحبه فى الزلل احدى المرار فيضيع عليه ما لو علم أنه مضيعه لفدام بكل ما فى دماغه من هوس وما فى لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعى فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه وأن قدميه أسلس مقادا من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقى وهو يعض ما ننظر إليه من شعر وجماع ما ينظر إليه الرافعى لأنه لا يبالى إذا سقط النشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقى جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق إليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل

أنتهب منا الكنانة والذخيرة فلم يدع فى طبعة نشيده الثانية وجها من أوجه النقد التى أتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته أن القذيفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين .

ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنها ولم يقدر فينا التنبه إلى صنيعه ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على سياجنا ؟؟

وليته أعتدل أو ترفق فيعذر بعض الأعذار ولكنه أذن لنفسه بغاية الافراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامى كما تكنى نفسك أو يا أبا عمرو كما تقول للجنة الأغانى فى خطابك فان صاحب المساكين حرى أن لا يغتصب بالسيف كما صنعت وفى رائعة النهار .

قلنا فى نقد نشيد شوقى أن النشيد القومى يجب «أن لا يكون وعظابل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب .

فرجع صاحبنا أبو عمرو إلى نشيده فحور منه ما استطاع بضمير المتكلم فقال :

إلى العلا فى كل جيل وزمن   فلن يموت مجدنا كلا ولن

وقد كان هذا البيت فى الطبعة الأولى :

إلى العلا فى كل عصر وزمن   فلن يموت مجد مصر لا ولن

ولما أن طوى هذا الضــمــيــر ووثق من مــواراته ونفض عن يديه ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقى لقوله :

على الأخـلاق خطو الملك وابنوا إلخ .. إلخ .

ويســأله : «وممن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشــعب لنفــســه أم من شوقى للشعب ؟ ص ٧٩» كما سألنا من قبل : «فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة !! » وكما أخذنا عليه «أنه لمتوطأ مطية الفلسفة والمواعظ» .

وانكرنا من نشــيــد شوقى أنه « قــد حــســب أننا سنظل طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا فنظم لنا نشــيدا لا نتخطى به فى جمــيع العصور أن يتهيــأ مكاننا وأن لا نبرح نشرع فى التمــهيد ونأخذ فى الاستــعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الأركان» .

فجــاء أبو عــمــر البيغــاء فقال : «وإذا قــيل اليوم لبنــى مــصــر هيا مهدوا للملك ومكانكــم تهيأ فهل يقال لهم هذا بعــد مائة سنة وبعد ألف ســنة وما شــاء الله وإلى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله فى تمهـيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقى عن الشمس : «ألم تك تاج أو لكم مليا ؟» بأن الشمس «لم تكن تاج الفراعنة وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيغاء أيضا «أن زعم شوقى أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وانما كانوا ينتسبون إليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فالله ما أعلم البيغاوات بالتاريخ إذا لقنته !!

وعبنا على شوقى تخفيف الهمزات وأنه صير «سئلت» سيلت و«تهيأ» تهيا وشيئا» شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل فى همزة سيلت لم يفهمه إلا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت» ص ٨٢

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

وروينا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول عهدهم عزا و«فخرا» إلخ إلخ .

لأن التنوين لابد أن يسقط فى الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت . قالوا : «وإذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة (فخرا) ومد بها صوته ورجمه فأى رائحة تفوح منها ؟ » ثم قلنا : «ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد» .

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين أنهم : «تنادوا بقوله فخرا وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا أنها مما لا يذوقه أحد الشعراء من

طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه .

أتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثاته أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نمانا أوائل علموا الأمم الرقيا

لأن الناظم ساقها مساقا ليس فيه «من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس» .

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : «كيف غفل شوقى عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم» ص ٨٣ .

فاسأله بالله ثم أسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !!

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة أنه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادى النيل عدن .... إلخ إلخ

قال : « أن البيت الثانى منبتر وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والكوثر » .

فترك هو القائل والراوى وزوى وجهه عنهما وصاح وحده ! «كلام

مقطوع عمـا قبله» . وسأل من لدنه سؤاله : «فـإذا كان لهم بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟ » ص ٨٠

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جـعلـنا مـصـر مـلة ذى الجـلال وألفــينا الصليـب على الهــلال

ووافقناه فـقلنا : «وهو انتـقاد سديد فـاننا أن سمــينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ » .

فوضع أصابعـه فى أذنيه - أو لم يضعهما - وأصـر وولى واستكبر استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فإذا : «زعم أنه يريد بملة ذى الجـلال الدين مطلقا قلنا له فـان القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومســيحين وإسرائيليين وكل هذه الأديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا إشارة إلى الديوان ولا كلمة يستشف منها أن أحدا تقدمه إلى هذا النقـد بل لعله قصـد إلى ادعائه عـنوة فكتب على الرسالة أنهـا طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لغفلة ذهنه أنه ضمنها فى صفحة ٦٧ كتابا للأستاذ منصور أفندى عوض مؤرخا فى ١١ ديسمبر . . .

فهذا الخلق البغيض ونظائره من جـرثومته هى التى تملأ نفوسنا تقززا وعزوفا من أدب الجـيل الماضى وأدبائه ، ومن صناعة من ينتسبـون إليها ولكن ليس لهـا ما لأحقـر الصناعات من حرم يرعـى ودستور يفـاء إليه

ووازع يوقف عند حده - أرجحهم منها سهما أجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الأدعاء ، وأرفعهم فيها اسما أطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا نقيضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولا حقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ، وما على المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ، وإنما البأس كل البأس عليه من المروءة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم فى جلسة لجنة الأغانى فقيدناها لهم وأبينا لأنفسنا أن ندخلها فى كلامنا مع أنها أهون وجوه النقد التى أخذناها على النشيد ومع أننا تحدثنا بها لأصحابنا ليلة أطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل أن نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحى أن يسم نفسه على غلاف رسالته «بنابغه كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعمد إلى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتمامه فيتنحله جملة ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة حتى بسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالأصنام[1] ثم لا يرى أن عليه بعد ذلك أن يوحى بفرد كلمة إليه ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الأناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا فى مصر كان هو يكتب رسالته فى

(١) قال فى صفحة ٦٩ «جهد أكبرهم أن يقرر أصنام الطبقة التى هم دولها ليكونوا بذلك أصناما للطبقة التى هى دونهم» وقال فى صفحة ٧٠ «وكم من صنم قد تغلغل باطله ونزعت شياطينه وانفرعت رذائله فإذا ذهبت تصلح منه التوى عليك» .

أقاصى الصين أو أطراف السويد ولا ندرى وقد وثق من وجهة بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة ؟

ولما أراد أن يعتمد علي نفسه فى وجه من أوجه النقد لم نذكره وظن أنه فاتنا أبلغ فى الفند والسخف فنعى على نشيد شوقى خلوه من لفظتى الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذه الأعمة أمة تتغنى بأنها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه فى مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

أية يا خفافيش الأدب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم . السوط فى اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم فانكم بهذه المساوئ تعلمون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم أن كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألاعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرضت اثنين : أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يأبون إلا أن يعدوا شكرى بين دعاة الجديد وإلا أن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الأذى عن المذهب الجديد وننفى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا أمرهم ولا نحن نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهل البصر والاتزان وسلامة الذوق والشباب السائرون على الدرب وهم من نرجوهم لصلاح الأدب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على أكتافهم رءووسا وكأنما حملوا معدة أخرى لا عقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم يطالبوننا أن لا نشيم الخير من أحد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محظور وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه !! فياويحنا لقد أسخطنا والله هذه المعدات الضاغية وهجنا ثغالبها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى «وضع أهم أحجار النهضة وضحى

فى سبيلها شخصيته وشهرته» كما يقولون . ولكن لا ضير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب فاننا لا ننكر أن شكرى «ضحى بشخصيته» !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف لبكمه ماذا يقول . ويتطوع المشفقون عليه للدفاع عنه فيجئ دفاعهم أقتل له من نقدنا . وينقمون منا أنا جعلناه صنم الألاعيب وهم يسخرون منه ويتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى نخلص له النصح ونمحضه الرأى والسداد ونشجعه ونغتبط بما نراه من تململه من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة فى التحرر ونجرى مع الأمل فيه فهل كان علينا أن نظل العمر طامعين فى غير مطمع ؟ ثم أهملناه على شئ من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا عليه فى الزجر فلم يغن لا الأعضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا راكبا رأسه حتى أحفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى أول عهده بقرض الشعر لا نغفل إلى جانب التشجيع أن ننبهه إلى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء الثانى من ديوانه «أنه يطأ مفاخر الصنعة بقدميه» وأنه « لايتعهد كلامه بتهذيب أو تنقيح ولا يبالى أى ثوب ألبس معانيه» وعللنا يومئذ جموحه هذا بأنه «نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج القديم ولجاجتهم فى احتذاء المثال العتيق» أى أنه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل يقابلهما من الجهة الأخرى غطيط المقلدين فى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٣ فهل يرى

أحـد أن رأى اليـوم لا يتـفق مـع رأى الأمس أن صح أن هناك رأيين ؟ كـلا لقـد أدينـا الواجـب لـه وللأدب قـديما ولكـنا اليـوم نـؤدى حـق الأدب وحده .

ومن المضحكات أن رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فـيها كاتبها «أنك تتهم شكرى بالجنون وأنت مثله والجنون فى شعرك كثير» وما رمينا أحدا بالجنون بل قلنا أن ذهن شكرى متـجه أبدا إلى هذا الخاطر مكتظ به وأن لهذا الاتجاه دلالته . على أن كونى مجنونا لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شئ جل أو دق وما أتهـمنا شكرى ولا تقولنا عليـه ولكنه هو الذى يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل فى كتابه (الاعترافات صفحة ٧١) .

«انى أسئ الظن بكل شيء سواء الحـميد والذميم فـلا غرو إذا رأيت فى الضيـاء ظلاما ورأيت فى سواده ما يخلقـه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى أذنه فـإذا تلفت إلى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليـمنى وإذا تلفت إلى يسـاره وجد سـوء الظن يهـمس فى أذنه اليـسرى ومن العجيب أن هذه الشيـاطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحهـا لتخدعنا بل تظهر قبحـها فى حركات وجهها وجـسمها (!!) هذه الشياطين هى الخـواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامـه كما يمرح الوطواط فى الظلام وتؤدى بالمرء إلى الجنون (نعم قد عـانيت من أجلها الجنون وجرعت كـأسه المرة وبلغت أعمـاقه ولا أعنى جنون من لا يحس

جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء الذكر والأمانى) أهـ .

فهل رأيت أيها القارئ اننا فيما كتبناه عن شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه وأننا إذا كنا نبالغ فى شئ ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخينا للقصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا أن شكرى بدا يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وأوردنا شاهدا على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من «الاعترافات» شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ «ومن العجيب أن هذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها فى (حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المجاز فى شئ فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا إلى هذا الفرض والتأويل فقد سد بابه باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته ص ١٠ :

«ويسمع المحب انغاما والحانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى اشكالا هندسية بديعة لا تسمع عنها فى كتب الهندسة ويرى أزهارا خيالية لا يعرفها الباحثون فى علم النبات» فهو يسمع ويرى ما يعلم أن لا وجود له وفى هذا تأييد لقوله فى وصف جنونه «ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه» .

وشكرى قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال فى ص ٢١ من الاعترافات :

«لقد كنت فى صغرى كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت التمس العجائز من النساء أسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحى عقلى (وحتى صارت) عالما كبيرا ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولى تحل حيث أكون . وأذكر أنى رأيت مرة عفريتا على سطح منزلنا وكان أسود الجسم شخصه مثل شخص الإنسان ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف» .

وليس ذلك فى صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبلغ أشده كما كان فى حداثته .

انظر قوله فى ص ٢٥ من الاعترافات :

«وفى بعض الأحايين أخاف خوفا شديدا أن يظهر لى أبليس . فألتفت كى أثق أنه لم يظهر بعد وفى بعض الأحايين اعتقد وجود العفاريت والجن كما كنت أعتقد فى أيام صغرى لقد سمعت البارحة القطط تعوى وتصرخ مثل عواء (المجانين) أو عواء الأرواح الحائرة المعذبة (التى تتخذ الليل جلبابا ثم تفرغ فى ذلك العواء ما تقاسيه من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس إذا حاولت الكلام لم أشك فى أنها عفاريت من الجن وأصابتنى رعدة شديدة .

.

وتأمل تدقيقه فى وصف هذه الأرواح الحائرة التى يذكرها وكيف أنه لا يجد تمثيلا لمواء القطط - لا عوائها - الا بعواء العفاريت وكذلك كل صوت فى سمعه قال فى ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت فى ولدها» وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تأكل الدور قال فى ص ٣٤ «أذكر أنى رأيت مرة حريقا هائلا فى جنح من الليل فهيج فى قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتنهدم وتنهال وتتصاعد السنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجهنا نور يزيدها شحوبا وكنت أحس لفح تلك النار فى خيالى وذهنى . . هذه هى المناظر التى (ألتذها) ومن الغريب أنى يخيل لى أن هذه المناظر وما تبعثه من الاحساس تعين المرء على أن يفهم الحياة ومعرفة سرها» .

ثم تصور شكرى واقعا له ما يصفه هنا فى اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رأيت اثنين يتساران الا ظنت أنهما يذكرانى بسوء . . أو أحدا ينظر إلى الا حسبته يحدث نفسه عنى بسوء وأنى لأسئ ظنى الآن بمن سيقرأ هذا الكتاب وما رأيت أحدا ينظر فى ثيابى الا حسبته رأى فيها شيئا خفى عنى وما رأيت أحدا ينظر فى وجهى الا حسبته رأى فيه شيئا قذرا وما رأيت أحدا عابسا الا حسبته يعبس من أجلى بغضا أو حقدا وما

رأيت أحدا باسما إلا حسبته يسـخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكا لم أعرف سـببه الا خجلت خـجلا شديدا وحسـبتنى غرضـا لذلك الضحك «ومن أجل ذلك صـرت أعبـس فى وجه كل من يبـسم فى وجـهى من الناس إلا من عرفت سبب ابتسامه وأحيانا أعرف سبب ابتسامه فلا يمنعنى ذلك من اساءة الظن به) .

وليـست خـواطر الجنون وسوء الظـن والعفـاريت كل مـا يملأ ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

«الفـزع من التهم ضـرب من سوء الظن والجبن لقـد رأين فى الحلم البارحة أنى اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ما ادفع به التهمة فـصرت أصيح أمـام القاضى وأقـول أنا برئ والقـاضى يهز رأسـه ولا يصدقنى والشـاهد الكاذب يبتسم ابتـساما خـبيثـا ثم رأيت بعد ذلك أنى أساق للـسجن والاعدام أنه لحلـم يفزع . . انى لأذكر أنى أتـهمت (زورا وبهتانا) فى أيام صـغرى بسرقة علبة مـن الحلوى ولا أزال أذكر ما نالنى من الفزع أن تكون الحيـاة كلها تهم (كذا) باطلة . . على أنه من (جنون) اليأس والفـزع والجبن توقع ما لم يحـدث من المصائب وقتـل النفس بهذا التوقع» .

ولا ينبغى أن تفـوت القارئ ملاحظة تـنبيه دائمـا إلى أن هذه التهم

مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فـان لهذا الخوف منه أن يصدق القارئ ما يرويه معنى ولا شك .

وقال فى ص ٨٥ : «يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير أن الناس منقسمون بفطرتهم إلى قسمين فهم أما مجرمون وأما أبرياء وهذا نظر فاسد فان فى نفس القديس جرثومة الاجرام . . أى الناس لم تخطر بباله خواطر الاجرام ولم يفزع مما يتحرك فى نفسه من حشرات الشر . . لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع المرء إلى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء القاتلة الحرارة والمرء فيها كالمصحر الظمآن يلبح لـه سراب الشر (بضيائه) فيريد أن يروى ظمأه وينقع غلته . . أنا اليوم برئ ولكن ما يدرينى ربما كنت فى غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التى فى نفسى . . وكنت أشفق على المجرمين واملأ لهم قلبى رحمة فانه لا يحزننى فى الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رأيت فى الحلم مرة أنى أتيت جريمة القتل ثم وقفت أمام جثة المقتول وقد أحسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمى وكنت أحس جريه كأنه دبيب الحشرات وقد جمد الدم فى عروقى وأسودت الدنيا فى عينى وكلما أردت أن أتنفس أحسست شيئا يسد مجرى النفس وكنت أحس صوتا كأنه صوت أعصابى تتقطع فيحكى صوت تقطع أوتار العود وكنت يخيل لى كأن يدا من جليد قد وضعت على ظهرى هذه الأحلام التى تمكن الأديب أن يعدم شخصه فى أشخاص

غيره وأن يلج إلى أرواح الناس وعواطفهم وأن يرحم المجرم كما يرحم التعيس »

وقال فى ص ٦٢ : «ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم الا حب الاحياء أنفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة أن انتحر فرارا من سلطان القضاء فأخذت سكينا وأدنيتها من صدرى ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغى أن أضرب نفسى الضربة القاضية فلم تهن على نفسى فقلت الليلة الآتية أفعل ذلك ولما أتت تلك الليلة أرجأت الانتحار إلى ليلة أخرى حتى أفكر فى طرق الانتحار واختار منها واحدة» .

وقد فكر فى الانتحار مرة أخرى لسبب هذا خبره قال فى ص ٩٦ :

« أنى لا أزال أذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيه شقيقى لم يكن يدرى مبلغ اساءته فرفعت يدى لألطمه ولكن الجبن وأخاه الحزم همسا فى أذنى قائلين انك إذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو أقوى منك فلا تصيبه الا ببعض ما يصيبك فخير لك أن تتحمل اللطمة الأولى وأن تنجو سليما فوقعت يدى إلى جانبى وأحسست أن روحى قد سلبت أجل شئ فيها فنظرت إلى ما بين قدمى لأرى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم أحسست كأن عظامى قد احترقت ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة فجعلت أعدو من الغيظ وقد أسودت الدنيا فى عينى وجعلت انظر إلى المارين وهم ينظرون إلى فأرميهم بلحاظ المقت والكرة لأنى كنت أحسبهم يسخرون بى ويعرفون ما

حدث لى ويفهمون سر روحى التى أهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت أن أرمى نفسى فيه ولكنى هزأت بنفسى تلك النفس التى تفر من اللطام إلى الحمام ثم ذهبت إلى البيت .. وخطر لى (أنا أتأبط سكينا أو مسدسا وأن أنتقم من ذلك الشقى فأقتله) ولكن الحزم والجبن وهما سمير ونصيحاى الاحا لى بالقضاء والمحاكم فجعلت أقرض أسنانى من الغيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات (الجنون) أهـ .

على أنه تشجع مرة بعد هذه وأراد أن يظهر أنفته وعزة نفسه فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكهة بعقب هذه المرارات . قال فى ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدال بيننا وخفت أن يبدأ اللطام بدأته به فان المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت أريد أن يخر مغشيا عليه منها ولكنى خفت أن أفقأ عينه أو أن أصيب أحد أعضائه بتلف دائم أو أن تكون ضربتى هى القاضية فتعود على بالطامة وبالعقاب الشديد . كل هذه الخواطر جالت فى ذهنى عندما سددت يدى لألطمه ومن أجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا فمد إلى يده باللطام ولكن يخيل لى أنه لم يخش ما خشيت من العقاب وأنما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بأنف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح» .

وقلنا عن شكرى أنه أبكم فكأننا اخترعنا شيئا وحسب البعض ممن يظنوننا نلقى القول على عواهنه ولا نبالى أين وقع من الحقيقة أننا

نستطيل بلساننا عليه مبالغة فى ايجاعه وتنقصه والزراية عليه ولهم العذر إذ ما أدراهم أنه هو القائل فى ص ٣٩ من الاعترافات :

«انى فى خلوتى بنفسى أعد الكلام البليغ والحجج الراجعة والكلمات البليغة وأتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى إذا لقيت هؤلاء وحادثتهم لم أجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم إذا خلوت بنفسى بعد ذلك أقول كان ينبغى أن أقول لهم كذا كذا فينطلق لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكنى أى مزية فى أن يكون المرء (عيبا) فى المجالس فصيحا فى الخلوات ؟ وهذا سبب من أسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون حياتى هادئة مطمئنة » .

وليس الأمر عنده من قبيل صمت المفكر أو المحزون أو قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص. قال فى صفحة ٤٧ من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت انظر إلى جرأة أترابى من الغلمان (وحسن لهجتهم) وأعجب بها وأتمنى أن أكون مثلهم . أذكر أن أبى زار بى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى فجاء الغلام وصافحنا وحيانا (بفصاحة وطلاقة ورشاقة) أعجب بها المحاضرون وصاروا ينظرون إلى ويضحكون» .

ولا تظن بنا الآن حاجة إلى استقصاء «الجنون» فى شعره بعد اقراره

به وتقريره أنه جرع كأسه المرقة وأنه وصل إلى أعماقه وأنه يحس بجنونه ويعرف أسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون أنهم مجانين .

وفي الناس كذابون حتى على أنفسهم ولكنا عاشرنا شكرى أعواما طويلة وخالطناه وبلوناه ولا نراه بالغ فى شئ مما وصف به نفسه بل لعله آثر السكوت عن أشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه وملابسيه . ولا يمكن أن يقال فى الرد علينا وفى تبرئة شكرى مما قرف به نفسه أن «الاعترافات» صاحبها رجل آخر اسمه م. ن وأن شكرى ليس إلا ناشرا لها فإن هذه الاعترافات ليست إلا طائفة من المقالات لا يربطها شئ إلا ضمح المتكلم وقد نشر شكرى أكثرها فى «الجريدة» بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على أنها له ثم عاد فجمعها فى كتاب طبعه فى ١٩١٦ ويرى قارئ الاعترافات أبيات شعر كثيرة واردة فى أثنائها وفى الهامش أنها من شعر المؤلف وصاحب الأبيات هو شكرى وربما ذكر اسم القصيدة التى هى منها وقد يعين الجزء من ديوانه الذى وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارئ على الركون إلى هذه الاعترافات وتصديقها أنه يجد مصداقها فى شعره فكما أنه قال فى الاعترافات فى نفس القديس جرثومة الأجرام كذلك قال فى شعره «فقد أغرم الانسان بالشر والأذى» وقال :

كل نفس فيها الخير والشر دواع طويلة الاغفاء

وقال معترفا أنا اليوم برئ ولكنى ربما كنت فى غد مجرما ومن شعره .

ربما شب بين جنبيك للشر ضرام ما أن له من فناء
أنت فى اليوم واسع الجاه غض الـ خير لدن الرخاء رطب الرجاء
خالص الكف من دماء قتيل أبيض الطبع لم يشب برياء
ربما كنت فى غد أشعث الطبـ ـع لئيم الخصال جم الشقاء
خاضب الكف من دماء عدو طائر الضغن ثائر الشحناء

وقلنا أن ذهنه مشغول بخواطر الأجرام والقتل وأورنا نبذا من اعترافاته وفى شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة «الزوجة الغادرة» وهى قصة امرأة أرادت أن تسمه فسمها هو :

وهى قد أفرغت لى السم فى كوبى وقامت تمر غير بعيد
ثم غافلتها وأفرغت كوبى فوق ماء بكوبها منزور
ثم نلنا من الطعام بلاغا وشربنا برءا من التصريد
ثم جاء اليوم الجديد فنامت زوجى الرود نومة المقبور
فعل السم فعله فى حشاها ودهاها من الردى بقيود

ومنها قصيدة عنوانها «أم أسبرطية قتلت أبنها» وهو فيها يبرر هذه الجناية لأنه فر من الحرب قال وقد نسى أنه هو أيضا جبان حتى فى مواطن «اللطام» .

أيها الخائن الجبان خشيت الـ ... موت والموت حادث مقدور
أن أما تعزى لها قتلت في ... قتلك العار لم يصبها معيب

ومنها قصيدة أسمها «قبلة الزوجة الخائنة» .

قد قبلتنى قبلة مرة ... كأنها من حمة العقرب
تنهش جاها لم يكن نهزة ... لشاحذ الأنياب والمخلب
لولا وميض الزاى يقتادنى ... يعيذنى من سفه المغضب (!!)
جللتها بالسيف إمحو به الـ ... ذنب بذنب رائع معجب

وتأمل في هذه الأبيات همس «الجبن وأخيه الحزم» وكيف أنه يصف الجريمة بأنها رائعة معجبة . ومنها قصيدة العقاب بالقتل وفيها يعذر المجرم .

أطيلوا حياة الجارمين فأنها ... حياة إذا سد المطامع عاقر
لقد اخلفتهم بلغة العيش برها ... زمانا وحابات الحياة غوادر
فبئس حياة المرء والفقر عاكف ... عليه وأسباب الحياة جرائر
هنا لك أنى للفقير لعاذل ... وانى له مما يعانيه عاذر

كأن كل من يجرم يكون باعثه الفقر والخصاصة : وله عدا ذلك أبيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه .

فلو كنت بين الناس ربا معزز ... ونادوك أنى فاتك النفس جارم
لالفيت غفرانا لديك ورحمة ... فما يغفر الزلات إلا الأعاظم

وقوله :

رحت أسعى كمصحر بان عنه الـ

صحب فرداً ذا وحشة واطراح

أو كذى الجرم حين طال به السجن

يضل الطريق عند السراح

وقوله :

كأن هموم المرء ذئب مراوغ فيا بؤس مقتول ويا بؤس من نجا

وفى اعترافاته أنه يحلم بأنه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك فى شعره .

يرى الناس أن النوم أم رحيمة ولكن نوم الجارمين عقاب
يسل على الحلم أسياف نقمة فاحلام نومى كالجحيم عذاب
كم هد من عزم صليب عذابها وشيب وراد الذنوب فشابوا

ومنها :

وغيرنى عما عهد جرائرى فليس إلى الحال القديم أياب
فلا تحسين الشر يمحي بتوبة وأن غفر الجرم العظيم متاب
يواقع كل الناس بالفكر شرهم وقد عابنى أنى جرؤت وهابوا
وكم حدثت بالشر ذا الخير نفسه وذاك حديث ما عليه عقاب

وقد شبه فى اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياء وكذلك

فعل فى هذه القصيدة .

ظمئنا فخلنا الشر فى العيش منهلا   لكـن ورد الجـارمـين سـراب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم ير فيه مأثما .

وأن بقلبي من جـفـائـك (جنة)   فـان رام يومـا قـتلكم مـا تأثمـا
فاسقى جنونى من دمائك جـرعة   وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

إلى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تـقصيه وما بقى من شك فى أن الرجل ممسوخ الطبيعة .

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمـه وهذه هى صفاته وميوله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلهـا شاذ غير مألوف فى الفطر السليـمة والطباع القوية كما نعرفها ويـعرفها الناس فهل بالغنا اللهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سـليم ؟ كيف والطبع أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر إلى الحياة من منظار معكوس يريها الأشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

« إبراهيم عبد القادر المازنى »

الفهـرس

الصفحة

تصدير ٧

مـقدمـة ٢٣

الجزء الأول

شوقى فى الميزان (توطئة) ٢٧

رثاء فريد بقلم العقاد ٣٥

رثاء عـثمـان غـالب ٥٣

استقبال أعضاء الوفد ٦٥

النشيد ٧٧

النشيد القومى بقلم شكرى ٨٩

صنم الألاعيب (١) ٩٣

الجزء الثانى

أدب الضعف ١١٧

ترجـمـة المنفلوطى بقـلم المازنى ١٢١

الصفحة

الحلاوة والنعومة والأنوثة ١٢٧
العبرات «قصة اليتيم» بقلم المازنى ١٤٣
أسلوب المنفلوطى ١٥١
شوقى فى الميزان ١٦٧
رثاء مصطفى كامل بقلم العقاد ١٨٣
رثاء الأميرة فاطمة ٢٣٥
ما هذا يا أبا عمرو ؟؟ ٢٤١
صنم الألاعيب (٢) بقلم المازنى ٢٤٩

رقم الإيداع ٢٠٠٠ / ١٢٧٥٩
I.S.B.N 977-01-6902-1

الهيئة المصرية العامة للكتاب